عمرو العادلي

مجموعة قصصية

و



و

عمرو العادلي

مجموعة قصصية

إلى ندى

كل ما فيكِ يُشبهني. حتى ما أحاولُ حجبه عن الأنظار.

وبعض عمرك
ما لم تعشه
وما لم تمته
وما لم تقله
وما لا يُقال

محمد الفيتوري

العنكبوت وأحلام جدي

انتظرتُ أن تُجيب أمي عن سؤالي، لكنها لم تتكلم، ظلت تتأملني لفترة طويلة وهي سارحة، فسألتها من جديد:

«أمي. ما هو العنكبوت؟».

لم ترد للمرة الثانية، ويناديني جدي، يعطيني هدية نجاحي متأخرة كثيرًا عن ميعادها، يمد لي يده بِكُرة أرضية مُضيئة لها قاعدة حديدية كالرغيف، تسبق ابتسامته كلماته:

«هديتك كوكب».

قال ثم جلس في ركنه القصي كما تعودته دائمًا، أشار لي بسبابته، ثم جاهد كي يُخرِج صوته من حَلْقه:

«يا عُمر. لِمَ لم تكُ من الأطباء؟».

أرتبكُ وفي يدي هديتي، أضع كُرتي الأرضية فوق مكتبي الصغير، أقتربُ منه وأسأله:

«لماذا يا جدي؟».

يجيبني وهو يخفض من صوته كي لا يصل لأمي القريبة:

«لتصف لي دواءً يعالج الزمن».

وأتذكر سؤاله لي بالأمس:

«يا عُمر. لِمَ لم تكُ من المدرسين؟».

وقتئذ، سألته سؤالًا فوق سؤاله:

«لماذا يا جدي؟».

أجاب وهو يتكوم في بطانية كبيرة جداً مقارنة بحجمه:

«لتثبّت درس الحساب في عقل ابن عمك إبراهيم».

لا أودُ أن يسألني أحد، كنتُ أحب أنا طرح الأسئلة. انصرفتُ من أمام جدي وتذكرت أن أمي لم تجب عن سؤالي لها منذ قليل، فكانت فرصة لأعيده على مسامعها مرة أخرى:

«أمي. ما هو العنكبوت؟».

تنشغل عني بأمور البيت، وينادني جدي بعد أن يسعل مرتين ويطرقع إصبعًا من قدمه، أجلسُ بالقرب منه، يشتد صوته:

«يا عُمر. لِمَ لم تكُ من المحامين؟».

«المحامون! لماذا يا جدي؟».

«لتسترد لنا الأرض دون مصاريف».

وعندما لم أجد ردًا ألقي بكتبي فوق أكوام الذرة الجافة، أركن كراريسي بعيدًا عنه كي لا يخترع لي سؤالًا جديدًا، ثم أذهب لألعب خارج الدار. بعد أن تغيب الشمس أقترب جدًا من بابنا، ألتصق بالجدران الدافئة، أخاف أن يخرج لي العنكبوت من الظلمات عند نهاية الشارع، فأدخل، ولا أجد جديدًا، جدي يجلس كما هو، وأمي تضع ما تبقى من وجبة الغداء لدجاجات القن، تلتفت فتجدني واقفًا خلفها:

«ما هو العنكبوت؟».

لا أدري هل سألتها أم سألتُ نفسي، لا فرق، فقد اعتدتُ عدم ردها، انتبهتُ لجدي الذي كان يدوِّر كُرتي الأرضية بطرف إصبعه، ثم يسند كفه عليها ليوقفها عن الدوران ويقول:

«يا عُمر. الإيمان القوي يجعلك ترى الكون كهذه. صغيرًا جدًا. وتستطيع التحكم في أفلاكه».

ثم أخذ يلف الكرة من جديد حتى كلَّت كفه وغامت عينه،

رفع رأسه عاليًا قبل أن يقول:

«يا عُمر. لِمَ لم تكُ قائد طائرة؟».

وأسأله كما اعتدتُ:

«لماذا يا جدي. هل تريد أن تركب الطيّارة؟».

يرفع يده عن الكرة الأرضية الزرقاء:

«لا. أريد أن أطير مثلها. بجناحين. وأصعد إلى أعلى. فأعلى، فأعلى».

قال، ثم ترك عصاه تقع، ظل يرفرف بيديه ولا يتحرك من مكانه.

بعد مدة لا أعلمها بعدد السنين والحساب؛ أرى جدي يتوكأ على عكازه ويقترب مِني، يضع كفه السوداء الواهنة فوق كتفي، ويقول كأنه يناديني:

«يا عُمر».

ثم يثبّت نظره عليّ بشكل يُخيفني:

«يا سارية الجبل».

وأنظر خلفي فلا أجد أحدًا، يمسح بأصابعه المرتعشة على شعر رأسي ويقول:

«لِمَ لم تكُ من النبيين؟».

تسلقتْ عيني عباءته حتى وصلت إلى خريطة ملامحه التائهة، ورأيتُ عينه الغائمة تنظر إلى السماء:

«النبيون! لماذا يا جدي؟».

وقعتْ يده من فوق كتفي وانصرف لحاله، ثم قال وهو يعطيني ظهره:

«لأكون من أتباعك المبشرين بالجنة».

يحمل فروة الصلاة ويدخل.

تتابعه عين أمي، وكما اعتادت الصمت دائمًا، انصرفتْ ولم ترد عليه.

في تلك الليلة رأيته يدخل عليّ في الظلام، من شِباك غرفتي الصغير، العنكبوت، كبير جدًا، وله هيئة كائنات الأحلام، أراه ولا أراه، أقبض عليه بكياني لا بيدي، لا أستطيع لمسه، يُحرك أذرعًا كثيرة وأرجلًا. نسيتُ أن أقول شيئًا ربما تصبح له قيمة فيما بعد، كان الشباك مُغلقًا.

استيقظتُ في الصباح، ليست لديّ رغبة في أن أسأل أمي عن العنكبوت، فقد رأيته واضحًا وأنا نائم، لكنني توقعت أن يسألني جدي أسئلته الغريبة، لذلك، ابتعدتُ عن الركن الذي يجلس فيه، اقتربتُ بعد الظهر من منامته فلم أجده، كانت لديّ رغبة في أن أقول لها ما حدث، ولم أتردد:

«أمي. لقد رأيتُ العنكبوت».

لم ترد، وتذكرتُ أنني لم أسمع الصوت الذي يطرح الأسئلة، فاقتربتُ منها جدا، خفت، لأول مرة أخاف من إجابتها:

«هل ذهب جدي للصلاة؟».

«جدك؟!».

قالتها ثم انصرفت ولم ترد عليّ.

الحافة والمُسدَّس

كل مساء يتكرر الحدث نفسه، يمسك الزوج مسدسًا ويصوبه تجاه رأسه، يُدخِل سبابته في دائرة الزناد ولا يضغط، لا تستوعب زوجته لماذا يفعل ذلك كل يوم حتى صار طقسًا معتادًا؟ تستمر المغامرة نصف ساعة من التوتر والقلق، يمسح بعينيه البراويز المعلقة فوق الجدران، يمر عليها مرور الكرام، ثم يتوقف أمام أحد البراويز، يتأمله طويلًا قبل أن يصوب فوهة مسدسه إلى رأسه، يُغمض عينيه ويزمّ شفتيه، ثم لا شيء بعد ذلك.

الموسيقى تنبعث من الراديو، الإيقاع هادئ، والليل يخلو من النجوم، وهُما ثابتان على الحال نفسها، في الصباح يمسك بالجريدة، يقلب فيها قليلًا ثم يلقيها بطول ذراعه، تسمع زوجته صوت خرخشة الورق، فتخرج من المطبخ، كل مرة عندما تسمعه تخرج، تمسك كوب الشاي، تضعه أمامه في صمت وترفع فنجان القهوة الفارغ.

المرة الأولى التي حاول فيها وضع حد لحياته كانت منذ أيام بعيدة، صرخت زوجته وتجمَّع الجيران من مُختلف الأدوار، في المرة الثانية صرخت أيضًا، لكن لم يتجمَّع الجيران، أما في الثالثة فاكتفت بأن تضع كفها فوق شفتيها وتسحب شهيقًا عميقًا وقلقًا، كل هذه المحاولات لم تجعلها مطمئنة بأن زوجها لن يتهور في لحظة ما؛ ويضغط على نصف الدائرة القاتلة.

لم ترضَ الزوجة أن يقتل زوجها نفسه بهذه الطريقة المبتذلة، التي تُنثر فيها الدماء في كل مكان، وتتطاير أجزاء من مخه تحت قدميها. كانت تقف على حافة الشُّباك وتهدده هي الأخرى بالانتحار إن لم يبعد المسدس عن رأسه، فيبعده بالفعل، وأحيانًا

يضعه على المنضدة، يجري باتجاه زوجته النحيلة، يحملها ليبعدها عن الخطر، يرفعها بين ذراعيه ويستقران فوق كنبة الأنتريه، ثُم يُكمِل شرب الشاي في هدوء.

من كثرة تهديده لها بالانتحار تعودتْ ذلك، تتميز المرَّات عن بعضها فقط في التفاصيل، ففي نوبة انتحار الأمس؛ كانت الزوجة تمسك بوردة في يدها وهي تصعد إلى سور الشباك، وعندما وجَّه زوجها المسدس في وضع إطلاق النار؛ نبهته أنه سينتحر بطريقة خاطئة، فيمكن أن تخرج الطلقة من صدغه الأيسر وتخرق صدغه الأيمن دون أن يموت، ولن يجني إلا ثقبين ونزف لتر من الدماء وعاهة لا تنفع معها عمليات تجميل، في تلك الحالة لن يمكنه التخلص من حياته، لكنه سيتخلص من وسامته فقط. وبالفعل، يعدل الزوج من وضعية المسدس ويسنده عند أعلى رأسه، فوق أذنه بقليل، لكن الزناد لم يتحرك من مكانه، ولا مرة واحدة.

في الصباح التالي قال لها:

«أشعر وكأنني متُّ».

فترد عليه بعد صمت طويل:

«وأنا أيضًا. تحديدًا منذ ذلك اليوم».

يمسك بالمسدس ويقلبه بين كفيه، ينظر إليه لا كآلة يمكنها أن تنهي حياة شخص؛ لكن كقطعة حديد صنعها الإنسان ليشعر بالموت في كل لحظة، دون أن يموت بالفعل.

كانت زوجته مخلصة لحالته بفضل العِشرة وانقطاعها من شجرة، ظلتْ تقاوم معه ما يتعرض له، لم تيأس إلا في هذه الأيام، أصبح زوجها يأتي تصرفات لا تُطاق، فقد حاول منذ أسابيع أن يقطع

شرايينـه وفشـل، وفكـر منـذ أيـام في تنـاول سُـم وخانتـه شـجاعته، فصار المسـدس هـو البديـل الصعـب، لا يفـارق يـده كل صبـاح.

ملَّـتْ زوجتـه مـن هـذه الروتينيـة، ففكَّـرت أن يسـتبدلا الوسـيلة، تمسـك هـي بالمسـدس ويقـف هـو عـلى حافـة الشـباك، جـرَّب لمـرة واحـدة، لكنـه لم يقتنـع بالطريقـة الجديـدة، لم تعجبـه المقايضـة، فعـاد كـما كان لوسـيلته القديمـة التـي اطـمأن لهـا، أصبـح يسـمع كثـيرا أثنـاء نومـه صـوت إطـلاق رصاصـة، ويـرى في خيالـه شـخصًا يترنـح، حـاول أن يبعـد هـذه الصـورة مِـرارًا، لم يسـتطع.

في الليلـة التاليـة نـام وهـو ممسـكٌ بآلتـه الحديديـة القاتلـة، وزوجتـه منكمشـة في حضنـه، وفي لحظـة كائنـة بَعـد الزمـن نفسـه، هُنـاك، عنـد الثقـوب السـوداء، سَـمِعَ صـوت طلقـة، حالـة أشـبه بسريـان البنـج في العـروق، سَـمِعَ الصـوت جيـدًا، اسـتبعد أن تكـون الطلقـة قـد أصابتـه، فهـو لا يـزال يسـتطيع السـمع، واسـتبعد أيضـا أن تكـون الطلقـة قـد أصابـتْ زوجتـه، فهـي لا تـزال نائمـة في حضنـه، بـل إن إصبعـه لم يضغـط عـلى الزنـاد مـن الأسـاس، المسـدس ثقـل فقـط عـلى يـده فسـحبها، واسـتقرتْ الآلـة الحديديـة فـوق المنضـدة الصغـيرة، نامـت يـده بجـوار كـوبي الشـاي الفارغـين.

حـاول أن يسـتيقظ كي ينظـر مـن الشـباك ليتقـصى الصـوت الـذي دوى منـذ دقيقـة، لكنـه لم يسـتطع النهـوض، ولم يجـد زوجتـه في مكانهـا.

عمتي والحمار

لِعمَّتـي «سـعديَّة» صـور بالأبيـض والأسـود والبرتقـالي الخفيـف، كان جـدي يعلقهـا عـلى جـدران الطـوب الأحمـر في نمـاذج صغـيرة بالـكاد يمكـن رؤيتهـا.

دخلـتْ ذات مـرة دارنـا الكبـيرة وهـي تبـكي، ميـاه المطـر تغسـل ملابسـها الفضفاضـة وحِرامهـا الأسـود:

«عبدُه طردني».

ويرد جدي:

«اقعدي».

ينظر في عينيها مباشرة، ثـم يأمـر جـدتي أن تُحضِر العشـاء، وتـأكل عمتـي سـعديَّة، ثـم تحـكي لجـدي:

«طردني الجبان والدنيا برد».

ويقول جدي:

«الصباح رباح».

يصـب لهـا الشـاي الـذي جـاءت بـه جـدتي، دائمـا جـدتي تعملـه وجـدي يصبـه في أباريـق صغـيرة، وهـو يختـبر سـخونة الإبريـق بـين شـفتيه فاجأهـا بسـؤال:

«من الذي سبّ الآخر منكما أولًا؟».

«سبّ؟».

أمسك بعصا وغرزها في الرماد الناعم الذي يسخن البراد:

«آه. فالغضب الصامت لن يصل بكِ إلى ترك الدار».

نظرت عمتـي لجـدي ولم تـرد، لكنـه كان يرقـب نظراتهـا بثبـات، الـدم

يصعد إلى وجنتيها ببطء، تقترب منهما جدتي:

«أنت تعرف عبده يا شيخ، غشيم وحمار».

يسحب العصا من الرماد ويقطمها، يرمي نصفها بطول ذراعه، ويشير كإصبع بالنصف المتبقي:

«وأعرف ابنتي أكثر».

في الصباح يرسل عمتي مع جدتي، يقومان بأشغال كثيرة فوق السطح وحول البيت، بعد ساعات قليلة تدخل عمتي مهدودة البدن غائرة النظرة، تدخل ولا تلقي السلام على أحد، تنام على سرير مهمل بطريقة مرتجلة.

بعد الظهر يرسلني جدي لعبدُه زوج عمتي:

«قُل له كلِّم جدي».

ثم تجذبني اليد الكبيرة قبل أن أتركه وأطير:

«اسمع. لا تدخل. بلِّغه الرسالة من الخارج».

أطير، ثم أسمع اسمي بالصوت العريض نفسه، وألتفت دون أن أعود ثانية:

«نادي عليه مرتين فقط. وإن لم يرد عُد إليّ بسرعة».

وأختفي من أمامه في لمح البصر، لا يشغلني إلا الرجل الحمار الذي ضرب عمتي وكسر لها الحَلَق، لن أضربه، فجدي لم يأمرني بذلك، يلتهب وجهي من البرد والغضب، أقف تحت المطر وأطرق الباب، لا يفتح عبدُه، أرى رأسه الكبير يطل من شباك حديدي صغير، وأسمع صوته الخشن المتقطع من الداخل:

«قل لجدك لن آتي».

ثم يغلق الشباك في وجهي.

لم يحدثني جدي عن هذا الاحتمال، أن يرد عليّ عبده من الشباك ولا يفتح لي الباب، تكوّنتْ الكلمات في فمي، ولم أتكلم، انصرفتُ بعد أن شعرتُ بأني عارٍ تحت الزخات الباردة، ورأسي كفُخّارة نُسيت في فرن شديد الحرارة، توقفتُ أمام الدار لا أريد الدخول، كنتُ أجهز الكلمات التي سأقولها لجدي، نسقتها في شكل يُظهر رجولتي أمام زوج عمتي الذي رفض أن يفتح الباب لي. عندما دخلتُ لم أنطق بكلمة، فقد قابلني صوت جدي على الباب:

«لم يسمع منك؟».

«....»

لم يفتح لك الباب. هه؟».

جلستُ بجواره فتبخَّرت كل الكلمات التي رتبتها من رأسي، أخذتُ أؤرجح ساقيّ وأخبطهما ببطن الكنبة، كان الصوت المنتظم يغريني بأن أظل على هذه الحال أطول فترة ممكنة، دون كلام.

بعد يومين يأتي زوج عمتي ووجهه في الأرض، يجلس مع جدي، يقول له:

«سامحني».

ويرد جدي:

«على ماذا أسامحك يا رجل؟ نحن أهل».

وقبل أن يجلس زوج عمتي على المصطبة يمسكه جدي من يده:

«حاسب».

يخلع عباءته الجوخ السوداء ويفرشها له ليجلس عليها، وينحني

رأس زوج عمتي أكثر:

«كفاية إحراج».

ويرد جدي:

«هل بيننا هذا الكلام؟ نحن أهل. والمصطبة مبلولة. لا يصح أن تجلس في الطين».

ويقول زوج عمتي:

«بعد إذنك».

يمد جدي رأسه للأمام كجمل:

«ها».

يُكمل زوج عمتي جُملته:

«عاوز سعديَّة».

«لا».

يقول جدي. يعود رأس الجمل إلى وضعه الطبيعي، يرفع زوج عمتي نَظَره عن الأرض، وقبل أن يرد يُضيف جدي:

«لن تخرجا من هُنا إلا بعد العَشاء».

وجلسنا جميعا حول مائدة الطعام.

كنتُ في العاشرة، اقتربت من جدي وقلت:

«بهذه السهولة يأخذها؟ إنه يضحك عليك. عمّتي تقول عنه بأنّه طويل اللسان وجبان».

يشد جدي على ذراعي ويُخفِض من صوته:

«اسكت يا ابن الكلب. بدري على ما تفهم».

يقوم زوج عمتي ليغسل يده من أثر السمين، وأكرر:

«هـذا الرجـل يضحـك عليـك يـا جـدي، لا تُعطـه عمتـي. ألم تقـل بنفسـها أنهـا لا يمكنهـا العيـش معـه أبـدا؟».

ويقول جدي جملة تجمع بين قوة عظيمة وضعف شديد:

«انظر إلى عمتك بالداخل يا مُغفَّل».

وأتسـلل إلى الداخـل، فأراهـا واقفـة أمـام مـرآة مكسـورة، تُخـرج مـن تحـت الإيشـارب خُصلـة شَـعر، تُمَوِّجها بثـلاث بِنَـس طويلـة سـوداء، وتحـك خدَّهـا بورقـة دخـان حمـراء، تـرج المكحلـة وتُغمِـض عليهـا عينهـا ثـم تسـحبها بعنـف مـن بـين جفنيهـا.

وأعـود إلى جـدي، وجهـي يُخـرج صهـدا، ويعـود رأسي يشـبه فخـارة تتفحـم في فـرن، ويسـألني:

«ها. ماذا رأيت؟».

وأقول:

«عمتي قليلة الأدب».

يضحك جدي وهو يدس كرة صغيرة من المضغة في فمه:

«لماذا يا أبو العُرّيف؟».

وأتردد قبل أن أقول:

«تضع الأحمر والكحل».

تزداد الضحكة، ويتسع فمه المظلم الغويط:

«ما دامتْ تفعله من أجل زوجها فهو الأدب نفسه يا مُغفَّل».

ويخـرج زوج عمتـي كديـك منتفـخ، وخلفـه بنصـف خطـوة تسـير عمتـي كبطـة سـمينة، تحمـل فـوق رأسـها قفصًـا جمعـت محتوياتـه كلهـا مـن الـدار، يبتلعهـما الظـلام ويتوهـان بـين خيـوط المطـر الغزيـر.

هي وهو

عمّ الدمار المدينة كلها، الأبواب واقعة على الركام، ومواسير المياه مخلوعة، المنازل المتبقية بلا مياه أو طعام، والحقول بلا زرع أو بهائم، هربت الكلاب واختفت الحشرات تحت الرماد، حتى الهوام، شبيها الغبار الكثيف الذي ظل لأيام طويلة يطير فوق الجمادات، وهناك في البعيد بعض طيور قليلة جدًا، كأنها جاءت لترى ما حدث عن قُرب.

التفاصيل التي ساعدت على الوصول إلى هذه الحال لا تُرى، ولا أثر لإنسان واحد على مدد الشوف، كل ذلك لم يتوقعه شخص، فلا أحد كي يتوقع، وكل ما حدث لم يدوّنه إنسان، فلا أحد كي يدوِّن، وتلك هي الكارثة الحقيقية، ألّا يعرف مَنْ يأتون بعد بما حدث قبلًا، أو ما يسميه الناس مجازًا، تاريخًا.

لكن، هناك، عند أحد الأبواب المخلوعة، بالضبط مكان الحلق الخشبي؛ كان رجل وامرأة يقفان، لا يُعرف من أين جاءا، كانت المرأة تمد يدها إلى مستوى فم الرجل، وهو يقبلها، يرتديان ملابس نظيفة، كأنهما سقطا منذ ثانية واحدة من كوكب مُعقَّم وقريب من مركز الأرض، لم يتأثرا بالدمار الذي لحق بالمدينة، بل لم يفكرا فيه، راحت هي ترفع طرف تنورتها وتتخطى الكتل الجامدة من الجدران المهدمة، وهو أيضا، كان يأخذ بيدها حتى يبدو رقيقًا.

عندما سألته عن الوقت نظر إلى معصمه، فلم يجد الساعة، ضحك، وبادلته الضحكة:

«إن الزمن ليس له وجود إلا في أذهاننا».

أصغت إلى كلماته، وردت:

«هل يكون حساب الوقت مضحكًا؟».

هزّ رأسه، فَجَرَتْ، تبعها وهو يقفز ويتخطى كل ما يقابله من الركام المهدم، جريا حتى هدهما التعب ودائرية الأرض التي لا تنتهي، فعادا من جديد إلى الباب المخلوع، وغاصا بالداخل لمدة لا أحد يعلمها ممن يحسبون الزمن بحركة العقارب.

خرجا بعد ذلك وهما أضخم قليلًا، هو بدين وهي منتفخة، وخلفهما نموذجان بشريان يحبوان، ولد وبنت، يشبهانهما جدًا، أو قليلًا، حسب زاوية الرؤية ومزاج الملامح.

بدأت بقايا الجدران المهدمة في الاختفاء، والغبار ألصقته الأمطار الجديدة بالأرض القديمة، وحلق الباب رُكّب في مكانه بيد أقوى من أيديهما وأكبر، حتى الباب، أصبح له صوت حين يفتح أو يُغلق، وعادت حديقة البيت الصغير تُزهر، والحجارة التي كانت متكومة وراكبة فوق بعضها بعضا؛ نُسِّقتْ حول الأشجار القصيرة وحمتها من الريح، أما ما دون ذلك من أشياء مفتتة مثل المسامير ونتف الملابس وريش الطيور الميتة؛ فقد دكّته أقدام الوافدين الجدد وغاص في باطن الأرض، لم يمت، ولكنه يستريح لبعض العصور، حتى يأتي دوره في تشكيل معني جديد لا يقدر على استيعابه مَنْ طمروه.

بعد أن أزهرت الحديقة وانتقل لونها من الرمادي القاتم إلى الأخضر الفاتح؛ غاص الأربعة بالداخل، ثم خرجوا سبعة، الفتاة التي قبّل الشاب يدها عند الباب المخلوع أصبحت عجوزًا تذروها الرياح، تمسك بعصا معقوفة لها رأس أسد عند المقبض وكعب حديدي يدق الأرض، أما الشاب الذي قبّل يدها فلم يخرج معها، وهناك في الخلفية شابان يخرجان، من خلفهما يحبو أربعة أطفال

يلعبون في الحديقة ويتسلَّقون الأشجار القصيرة.

أحد الصبية يمسك بالعصا التي لها رأس أسد وكعب حديدي، يجذبها من طفل آخر أصغر منه، يقول له بأنه سيحتفظ بها كذكرى مهمة من جدته التي لم يرها.

يختفي كل أثر للدمار القديم في أرجاء المدينة؛ يعمرون الجبال والصحراء لتصبح مروجًا، وبعد أن يطمئن ساكنوها ويبتهجوا، تأتيهم من جديد أنباء الحرب، فالمروج الخضراء وبساتين الفاكهة التي لديهم لا توجد في مكان آخر، وأصحاب الأماكن الأخرى يطمعون، فهُم لا يزرعون أو يحصدون، بل يصنعون أدوات الحرب بمهارة، ولهم قدرة فائقة على المراوغات الكلامية.

ودقت الطبول على أبواب المدينة ذات فجر.

أغاروا عليهم ودمروا كل ما قابلهم من خَضار، زحف زبد البحر الأبيض على الشواطئ، استحالت موجاته البيضاء لأعمدة من ملح، وقعت على الصخور فتفتت، الزخرف الوحيد الذي بقي كان زخرف الطبيعة، انحناءات البحر ولون السماء وصفرة الشمس، أما الأرض فقد تكومت بيوتها تلالًا من حجارة وجذوع أشجار وخِرق بالية، واستحالتْ مروجها إلى عصف مأكول، وحُليّها تناثرت، المكاحل اندثرت بين الأتربة، والمرايا تهشَّمتْ ورجعت لنشئها الأول، حبيبات من رمال.

عادت المدينة تغوص في صمتها البعيد مرَّة أخرى، لكن عند أحد البيوت المُهدَّمة كان هناك باب واقع، الحلق مائل على جانب واحد كلسان ذبيحة. عند فتحة الباب الخالية يقف شاب وفتاة، يرتديان ملابس نظيفة، ولا علاقة لهما بما يحيط بالمكان من دمار، هي ترفع يدها بالقرب من فمه، وهو يقبلها بلا هوادة، ثم

يدخلان من الفتحة السوداء، البرزخ القريب، ويغيبان بالداخل، لم تعد تذكر ما نسيت، ولم يعد قادرًا على نسيان ما يذكر، اختلط موته الأخير بولادته الأولى، وهي لم تتذكر ما أراد أن يقوله لها، تنساهما الخرائب والدمار بالخارج، يطويهما عبّ الزمن الفضفاض بالداخل، ويغيبان في سخونة الثقب الأسود.

الحَجَر والقتل

صلينا العيد وخرجنا من المسجد، أسبِقُ أبي بهرولة في طريقي إلى البيت، فلابد أن أرى الجزار وهو يذبح العجل. لكن أبي لم يتجه إلى البيت:

«أين سنذهب؟».

ويرد أبي:

«صبرك بالله».

نمشي مسافة طويلة، نقف أمام باب خشبي مطبوع عليه كفوف من دم ذبيحة قديمة، يطرقه أبي بكل قوته، ويخرج إلينا رجل قريب من عُمر أبي، يلبس قميصا أبيض وبنطلون جيش. ودون كلام تناوله امرأة بدينة جرابًا أسود من قماش سميك، يسحبه الرجل ويخرج معنا، يمرّ على صبيين صغيرين في عشّة مجاورة، ثم نذهب جميعا إلى البيت.

من خلال كلام أبي مع الرجل طوال الطريق أعرف أنه الجزار، أخذتُ أتأمله بزهو وإعجاب، فقد كانت المرة الأولى التي يشتري أبي لنا عجلًا وليس خروفًا.

دخلنا، وجدنا جلبة كبيرة بانتظارنا وبعض أولاد الجيران يلعبون، العجل في حوش كبير بجوار بيتنا، أمي تقف خلفه وإخوتي من حوله مبعثرون، اقترب الرجل من العجل وتأمله طويلًا:

«لا ينفع أن أذبح هذا العجل».

«لماذا؟».

يسأل أبي الجزار، ونلتفتُ جميعا إليهما، تنخفض أصواتنا بالحديث والأسئلة كي نعرف السبب:

«هـذا العجـل قرنـه مـتر. يعنـى خطـر. وحركتـه الكثـيرة لا تُطمـئن. اعـذرنى يـا حـاج».

«سنعطيك ما تريد يا معلم».

«الضعف».

«موافق».

«وحساب الصِبيين».

ينظر للصبيين:

«موافق».

كانـت هـذه هـى المـرة الثالثـة التـى يرفـض فيهـا جـزار ذبـح هـذا العِجـل، فوافـق أبى عـلى كل شروط الرجـل دون فِصـال.

لم يعـد للجـزار أى حجـة. يفتـح الجـراب القـماش ويخـرج منـه العـدة، يناولـه أحـد الصبيْـين حبـلًا طويـلًا. يقـترب الجـزار أولًا مـن الهـدف الذى يقفـز بقائميـه الخلفيـين، لكـن رفسـة قويـة طـارت فى الهـواء قبـل أن يلمسـه، يناولـه الصبـى الثـانى سـكينا طويلـة يبـدو أنهـا للمناوشـة، نبتعـد جميعـا مسـافة عـشرة أمتـار، نريـد أن نتفـرج عـلى الخطـر دون أن يمسـنا، كفيلـم سـينما يحفـل بالمعـارك، نقـف عنـد بـاب الحـوش، ومـن هنـا بـدأتْ المعركـة.

خبـأ الجـزار السـكين عـن عـين الأضحيـة، وبرغـم ذلـك فقـد هجـم عليـه العجـل فى أقـل مـن ثانيـة، كاد القـرن المُخيـف ينغـرز فى ظهـر الجـزار، ابتعـدَ مُسرعـا ثـم لـف بسرعـة، عاجـل الحيـوان الـشرس بطعنـة فى أنفـه، فانتبـه العجـل وأخـذ حـذره بعـد أن شـمّ رائحـة الـدم، ثـار وكاد يقفـز مـن فـوق السـور الطينـى القصـير أو يحطمـه، ابتعـد الجـزار بصبييـه وأسـلحته إلى الخلـف، حتـى خرجـوا مـن الحـوش نهائيـا، اقتربَ

من أبي وعلامات التوتر واضحة على ملامحه، والعرق بلل حواف شاله الأبيض:

«عاوز حجرين قدم».

يوجه الجزار كلماته لأبي وهو يلهث، ويتأكد أبي من صدق ما سمع:

« حجرين قلم؟!».

«يا حاج حجرين قدم».

وعندما يتأكد من فهم أبي لما طلب يجلس فى ركن بعيد، يشرب كوب شاى مدَّته إليه يدٌ من الجمهور الكثير، يرشف الشاى ويعقد الحبل على شكل «خيَّة» ثم يصنع واحدة أخرى ويعقدهما برباط واحد طويل.

يرسلنى أبي لأشترى الحجرين، طوال الطريق وأنا أفكر فيما سيفعله الجزار بحجر القدم، رحتُ فى جرى وجئتُ فى جرى، يعطى أبي الحجرين للرجل، يقوم الجزار ويمشى على أطراف أصابعه، يهمس الأرض حتى يصبح خلف العجل تماما، لو هزّ ذيله الآن سيلطم وجهه، يسند الجزار قبضتيه بالحجرين فوق ظهر العجل، تماما عند العظمتين البارزتين، أعلى نقطة، وظل يحكّهما بشكل بطىء حتى همد العجل تماما عن الحركة، فكّه الذى كان منشغلا فى مضغ البرسيم توقف، أنفه المصاب نسيه مؤقتا، كانتْ لذّته واضحة بدليل ثباته وعدم حركته.

فى هذه اللحظة تسلل أحد الصبيين تحت بطن العجل، رفع القائم الأمامى وربطه فى الخلفى، والجزار لا يزال يحك ظهره بالحجرين. كان الصبى الآخر يسحب الحبل فيربط قائم العجل

الأمامى بالخلفى، تقل المسافة ولا يتحرك الثور الذى كان هائجا منذ دقائق، مخاط شفاف ينزل من فمه وخط دم متجلط عند أنفه.

قلّ الحك فانتبه العجل، ولما انتبه عاد الجزار يحك بقوة، خارتْ قوى العجل وفَقَدَ ثورته ببطء، فقدها بتكثيف اللذة والخدر. سحب الصبى الحبل أكثر فانتبه العجل لسحب قائمه الأمامى من مكانه، لكنه لم يهتم كثيرا، توقَّف الجزار عن حك ظهر العجل بالحجرين وابتعد قليلا، نقر كتف الصبى وسحبه للخلف بهدوء، فسحب الصبى صديقه معه. العجل وحده ينظر إلينا، كأنه يسأل أين ذهبتْ اللذَّة؟ كان مربوطًا بحبل متين، وطرف القيادة فى يد الجزار:

«أول ما يقع تقعدوا كلكم فوقه مرَّة واحدة».

قال الجزار وأخذنا الدرجة القصوى للاستعداد. فى غفلة، شد مع الصبيين الحبل بقوة فترنحت قوائم العجل الأربع، شدوا مرَّة ثانية فانكفأ على بوزه، حتى سمعنا اصطكاك أسنانه بالأرض، بعد أن وقع جرينا بشكل حماسى غريب لنجلس فوقه، جلستُ أنا على بطنه الطريَّة الدافئة، كان يصدر صوتا مخيفا، وبطنه يعلو ويهبط، لا أعرف لماذا أعطيتُ ظهرى للجزار، لم أود أن أراه وهو يُخرج السكين، بعد قليل توقف الصوت المخيف وصدر بدلا منه شَخرة وحشرجة، ثم لطمنى من الخلف سائل هادر وساخن.

أثيرة ورْوحيَّة

بدأت وقائع القصة عندما زار صديقه ذات مساء.

وما الجديد؟

فالشيخ قطب يزور صديقه كل ليلة تقريبًا، يشربان الشاي واليانسون ويقضمان أعواد البقسماط أبو سمسم، يتحدثان عن أمور الحياة وتصاريف الزمن، يحكيان ما يَرِدُ في الأحلام، يربطانه بالواقع حتى ولو تلفيقًا، تدور الجوزة ويعلو الدخان، يزداد السكون ويقطع الصمت لسانان.

وما الجديد أيضا؟

فالجوزة تدور كل ليلة بينهما، وهذه الموضوعات هي التي يفتحانها غالبًا ويغزلان منها أحاديث ممتدة لا تنتهي، الجديد أن وجه الشيخ قطب هذه المرَّة كان مسلوخًا.

بلون قشرة البرتقال الناضج تساوت ملامحه، قابله الشيخ إبراهيم بابتسامة بشوشة كعادته، لم يرعبه منظر وجهه المسلوخ، لكنه قال له بهدوء:

«لن أسألك ماذا حدث، فأنت ستحكي لي من تلقاء نفسك كما تفعل كل ليلة، أليس كذلك؟».

جلس الشيخ قطب أولًا واستراح، كأنه جاء من رحلة بعيدة، ثم راح يتحدث إلى صديقه الوحيد:

«آه يا شيخ، هذه المرة تختلف عن كل المرات، رأيتني أنزل إليها تحت، لكنني في الوقت نفسه أصعد إلى أعلى، تقترب روحي من شموس كثيرة ولا تحترق، هل رأيت من قبل روحا تحترق؟ أبتعدُ عن الكوكب الأزرق حتى يصير نقطة حبر مضيئة في مسبحة

الكون الكبير، ليتني كنتُ شاعرا كي أستطيع أن أصف لك عن طريق الكلمات ما صادفته في تلك الرحلة المثيرة، أو ليتني كنتُ موسيقيًّا حتى أستطيع عزف ما صادفني من أصوات لها حس الألوان، لابد أن ترى بنفسك ما رأيته يا شيخ إبراهيم حتى تصدقني».

«أنا أصدقك دون أن أرى».

يكمل الشيخ قطب:

«كان وجودي بالقرب من أثيرة فوق إدراكي، ولأول مرة أراها ليستْ مجرد كائن من عالم غير عالمنا، فعندما رأيتها مرة واحدة في أحلامي الدنيوية المشوشة كانت ساطعة وباهرة، اللؤلؤ يخرج من بين شفتيها، كلماتها حروف مضيئة على شكل كلمات سماوية».

يسحب الشيخ إبراهيم نفسًا وينفخه لأعلى ويقول:

«منذ شهر أو أكثر وأنت تحكي لي حكايتك معها، ولكن أليس من الغريب أن تخرج معك من الأحلام؟».

عندما سأله صديقه توقف عن الاسترسال في الكلام وتنهّد:

مد يده وتناول الغابة، مسح فوهتها وقال قبل أن يضعها في فمه:

«وربما أنا الذي دخلتُ إليها».

يمط الشيخ إبراهيم شفته السفلى ويرفع كتفًا واحدة قليلًا، في تلك اللحظة تكون الغابة مستقرة في فم الشيخ قطب، يسحب منها نفسا يشفط صدغيه الملتهبين للداخل:

«أكمل».

يقول الشيخ إبراهيم، ويرد صديقه بعد أن يطرد الدخان من رئتيه:

«عندما دخلتُ بالأمس على أثيرة قالت لي لا تقرب زوجتك الأولى. لكنني يا شيخ إبراهيم لم أستطع فعل ذلك، فروحية زوجتي وابنة عمي وأم أولادي، وستصبح جدَّة بعد سنة أو سنتين، لا يمكن لي تركها حتى ولو أزهقوا روحي، ليس لأنني الآن أعشقها، فقد ابيض كل شعرها ونما شعر آخر في وجهها لا تخطئه عين، لكن لأن للعشق في قلبي معها منزلة الذكرى الجميلة؛ عصيتُ أثيرة وكذبتُ عليها. لم أكن أعرف أنهم في تلك الطبقات البعيدة يعلمون كل ما نفعله دون أن نخبرهم به. وعرفتُ أنني فعلتُ ما نهتني عنه».

يعمل الشيخ إبراهيم الشاي:

«ولكننا اتفقنا أول أمس على أنك لن تعصي أوامر أثيرة لأنك تحبها هي الأخرى، ها. أكمل. ماذا حدث بعد ذلك؟».

ويعود الشيخ مسلوخ الوجه ليربط ما انقطع من حديثه:

«الذي اكتشفته عندما كنت أنزل إلى أثيرة أن ملامحها تتشابه جدا مع ملامح بنت كنت أحبها منذ ثلاثين سنة، وبذلك استحوذتْ أثيرة على رقَّة قلبي بمنزلة امرأتين، حب قديم وعشق جديد، آه يا شيخ، والله لو تدري بالنار المشتعلة بحب الاثنتين، لا أستطيع الابتعاد عن طيف إحداهما إلا بموتي، حتى موتي، أستغفر الله العظيم، يُهيأ لي بأنه لن يمنعني عن التفكير فيهما معا».

يغير الشيخ إبراهيم الحجر ويشفط نفسًا طويلًا فتتوهج الجمرة ويشتعل الحجر:

«وماذا حدث عندما عصيت زوجتك التي تنزل إليها كل ليلة؟».

يأخذ الشيخ قطب نصيبه من الحجر الجديد أولًا:

«عندما نزلتُ إلى أثيرة كانت بانتظاري، اخترقتُ سبع طبقات

لـلأرض في لمح البصر، كأنني أغوص في طبق زبـادي، وأشـم رائحـة ياسـمين، والله ياسـمين يـا شـيخ، مـا إن وصلـتُ حتـى تلقفتنـي يداهـا البيضـاوان وداعبـت وجهـي بأظافرهـا الفضيّـة، بعـد أن قضينـا وقتًـا طيبًـا تركتنـي وانصرفـتْ، وبعدمـا انصرفـت نمـتُ، لكننـي مـا إن نمـت؛ والله يـا شـيخ إبراهيـم، لم أدرِ بنفسي ولا بمـن حـولي، رحتُ في دنيـا غـير الدنيـا، طبـول ومزيـكا وألـوان ومخـادع مـن حريـر، وشراب تسـتحوذ رائحتـه عـلى الحـواس فلا يُعصى لها أمـر. لم أخـرج مـن هـذه الحالة السحرية إلا عـلى صوت يشبه طقطقـة حطب جاف يشـتعل، ومـا إن اسـتيقظتُ حتـى وجـدت السريـر يحـترق بي، وفيـما لحمـي يُشـوىَ وقفـتْ أثـيرة قريبـة مِنّـي وهـي تضحـك وتقـول بصـوت رنـان يملأ فراغًـا كالـذي بين السـماء والأرض: «لـو أن لي سـلطانًا عـلى روحيتـك تلـك لجعلتهـا تُرابًـا مثـل الـذي خُلقتـما منـه. ولأذبتهـا في إنـاء مـن نـار ورميـتُ رمادهـا في البحـر، لكننـي لا أقـدر إلا عـلى مـن زوجتـه نفسي وتعطـرت مـن أجلـه، وعزفتُ المزيكا لمسامعه ونسجت الألـوان لعينيـه، لا أقـدر إلا عليـك أنـت»، عندمـا قالـت ذلـك وقـع عـليّ سـهم اللـه، وكأن الجـن قـد لبسـني يـا شـيخ إبراهيـم واللـه».

رد الشيخ إبراهيم ببرود:

«لقد قلت لي من قبل أن أثيرة نفسها جن، فما الجديد؟».

توقـف الشـيخ قطـب عـن الحـكي وعـن الشـفط مـن الغابـة، احتقنـت ملامحـه وقال:

«الجـن يسـكن خيالنـا كـما لـو كان كائنـا مشـوّها، لـه قرنـان في رأسـه وأظافـر أطـول منـه، لكـن الجـن الـذي هـو أجمـل مـن البـشر كان بعيـدا جـدا عـن خيـالي».

«وماذا قلتَ لها؟».

يرشف الشيخ قطب من كوب الشاي:

«قبل أن أقول شيئًا فتحتُ عيني فوجدتُ نفسي أرقد بجوار روحية ابنة عمي، كيف صعدتُ طبقات الأرض السبع مرة أخرى، كم استغرقت رحلتي من تحت إلى فوق؟ والله لا أعلم، أحسستُ وجهي ملتهبًا، لم أشعر بصعودي أبدًا، وجدتني نائمًا بجوار روحية أتحسس الملاءة وأتأكد من وجودي بالفعل، رأتني نائمًا بجوارها وأنا على هذه الحال فصرخت، حتى أنا؛ عندما لمحتُ وجهي في المرآة خفتُ من شكلي، رأيتني، كما تراني أنت الآن، مليئًا بأصداف برتقالية كجلد سمكة بربوني، لا أطيق أن يلمسني أحد. تخيل، إنك الوحيد الذي لم يصبه الرعب من ملامحي».

رشف الشيخ إبراهيم من كوبه:

«لأنني الوحيد الذي أثق بما تقول، أثق بخيالك، أصدق حكايتك وأؤمن بها دون حاجة إلى براهين يطلبها من لا يعرفونك جيدا مثلي، أنا الواقع الأرضي وأنت الخيال الجامح، لا يمكن لأحدنا العيش بدون الآخر أبدا».

ينتبه الشيخ قطب ويحملق في صديقه:

«ولكن ما أقوله لك حقيقة وليس خيالًا».

يبتسم الشيخ إبراهيم:

«أعرف أعرف. لكن أكمل. قُل لي. كيف استطعت أن تفلت من أثيرة وتعود إلى روحية؟».

رد الشيخ قطب يد صديقه بالشاي، فقد كان يستعد بشكل كبير لتكملة الحكاية:

«فاتني أن أقول لك شيئًا مهمًا. بعد أن أصبحت لا أرى أمامي

إلا الألـوان ولا أسـمع إلا المزيـكا والطبـول؛ شـعرتُ بأنني طائـر كبير الحجـم مثـل جبـل، وأخـذتُ أرفـرف وأرفـرف».

عندمـا قـال هـذه الكلمـة قـام مـن مكانـه ورفـع ذراعيـه كمـن يسـتعد فعليًـا للطـيران. ثـم أكمـل:

«وعندمـا خرجـتُ مـن أجـواء السريـر الحريـري الـذي كنـتُ غاطسًـا فيـه مـع أثـيرة؛ انتقلـت بسرعـة الـبرق إلى سريـري الحديـدي مـع روحيـة، تلبسـتني روح أثقـل وبـدأت أفكـر بشـكل متـزن، لكـن يـا شـيخ إبراهيـم مـا كنـتُ أصـل إلى عـالم حتـى أشـتاق للآخـر، ومـا أن يأخـذني صـدر واحـدة حتـى أهفـو إلى صـدر الأخـرى، وشـعرتُ بـأن روحـين تسـكناني، أو روح واحـدة منقسـمة، نصفهـا مأخـوذ مـن طائـر، ونصفهـا الآخـر مـن وحـش كاسر، أمـا ذلـك الإنسـان الـذي نطلـق اسـمه عـلى أنفسـنا فـلا وجـود لـه إلا في خيالنـا، وأن ذلـك الاعتقـاد الخاطـئ هـو الـذي يحـول أرواحنـا إلى خرائـب».

«خرائب؟!».

قالها الشيخ إبراهيم، فجلس الشيخ قطب، مؤجلًا الطيران ورد:

«نعـم فأنـا أشـعر بروحـي وكأنهـا مُنتزعـة مـن عـدة كائنـات لطيفـة، لا تتحـدَّث لغـة الـكلام».

ركـن الشـيخ إبراهيـم الجـوزة في اسـتراحة قصـيرة، ثـم قـدَّم لصديقـه بعـض عيـدان البقسـماط، تنـاول الشـيخ قطـب عـودًا وأخـذ يقـشر السمسـم منـه بـلا وعـي كامـل، ثـم قـال:

«عندمـا كنـتُ أذهـب إلى أثـيرة أُصبـحُ كالمربـوط بروحـي، روحـي غـير المحـدودة، التـي تشـمل الزمـان والمـكان ومـا بينهـما، وعندمـا تتلقفنـي روحيـة أصبـح كالمربـوط بجثتـي، ثقيـلا وأشـعر بـكل مـا يحـدث مـن

حولي، وهـذا أيضا لـه حلاوتـه يـا شـيخ والله، إذ كيـف أشـعر بأنني أنتمي للأرض وأدب عليها بلا جثة ثقيلة، وكيف أشعر بأنه يمكنني تغيير ذلك الواقع إلا بروح خفيفة لا تعي فعليا كل ما يحدث من حولها».

«لم تقل لي حتى الآن ماذا حدث عندما عصيتَ أثيرة؟».

عـادت الجـوزة للـدوران بينهـما مـن جديـد، سـحب الشـيخ قطب نفسًا عميقًا وزفره مرة واحدة قبل أن يقول:

«مراحل الانتقال من تحت الأرض إلى فوقها هي العملية الأصعب دائمًا، كنتُ أشعر وكأنني نبتة تجاهد كي تخرج من الأرض، ثم تتأهب لتكون طعامًا لرجل يستعد للعشق، تتزين عاشقته لاستخراج خليفته في الأرض، عملية مُعقَّدة أشعر خلالها بأنني أنصهر، أخترقُ غلافًا سميكًا من أجل تبديل العالم، من أجل التحول من شيء إلى شيء آخر، وربما من لا شيء إلى شيء، رحلة أحب فيها نفسي وأكره المرآة، فهي أسخف ما اخترعته يد البشر، بدونها يمكن للإنسان أن يتخيل نفسه أي شيء؛ طائرًا فوق جبل، حشرة في بطن جحر، سحابة هائمة. ولولا هذه المرآة لما عرفتُ بأن أثيرة حرقتني وسلخت وجهي، فأنا لم أشعر بأي ألم، لكن منظري فقط هو الذي أرعبني، المرآة حجَّمتْ الخيال وحبست كل واحد منا داخل جثته».

كان يفتح فمه بصعوبة، وضع عودًا من البقسماط وأخذ يقضمه بأسنانه الأمامية، فسأله الشيخ إبراهيم:

«مشكلتك الوحيدة يا شيخ قطب أنك لا تستطيع التعبير عن مرحلة التبديل التي تحدث لك بشكل دائم، ألم تقل لي بالأمس أنك بين أثيرة وروحية تتنقل كل ليلة؟».

رد بعد أن أكل رُبع عود البقسماط فقط:

«روحي الحائرة هي التي تتنقل بينهما».

«وكيف تعرف وأنت هُنا بأنك ذهبت إلى هناك؟».

«أنـا لا أعـرف شـيئًا. كل مـا في الأمـر أن الإشـارة تأتينـي ولا أردهـا، فعندمـا تعقـد أثيرة العـزم عـلى قضاء ليلـة معـي لا أسـتطيع ردهـا إلا وهـي مرضيـة، أنـزل إليهـا مـن طبقـات شـفافة لا يسـتغرق اختراقهـا وقتًـا يذكـر، تسـتقبلني بالأناشـيد الشـجية، تطـوف حولنـا المزامـير والنقَّـارات، أجدهـا بانتظـاري في أحسـن هيئـة وأجمـل حُلـة وأرق عطـر، ويمكـن لـك يـا شـيخ أن تُخمـن الباقـي، أمـا عـن الحالـة التـي أصير إليهـا فهـي مزيـج مـن سـطوع ضـوء وروعـة ألـوان لابـد لـك أن تراهـا بنفسـك حتـى تصدقهـا».

«وماذا لو قضيت ما تبقى من حياتك مع أثيرة؟».

فكَّر الشيخ قطب قليلًا:

«ستشـف روحـي حتـى تصبـح مـادة رخـوة يمكنهـا أن تسـتحيل إلى جميـع الأشـياء».

«وماذا لو قضيت ما تبقى من حياتك مع روحية؟».

سـتصبح روحـي مُعتمـة وثقيلـة، سـاكنة يفنيهـا العبـوس، فهـي في تلـك الحـال لـن تمتلـك القـدرة عـلى إمكانيـة التحـولات المدهشـة».

«وهل أنت مطمئن لأثيرة؟».

«نصـف اطمئنـان. كـما هـي الحـال بالنسـبة لروحيـة. نصـف اطمئنان أيضًا».

ثم بدأت ملامحه تتبدل وتحتقن:

«الآن جاءت الإشارة».

«هل ستذهب؟».

«نعم. لا أستطيع رد الخيال».

قـام الشـيخ قطـب وهـو يحجـل. مِـشي باتجـاه البـاب دون وعـي كامـل، ثـم غـاب في ظلـمات الخـارج.

البديل والمُحتَمَل

الرجـل النظيـف نائـم عـلى سريـر معقـم، والمصابيـح المتوهجـة أحالـت الليـل إلى نهـار، سـأل المريـض النظيـف طبيبـه المبتسـم:

«وهل تضمن نقاءه ونظافته يا دكتور؟».

اتسـعتْ ابتسـامة الطبيـب دون أن يـرد، بعـد قليـل دخـل زميـل لـه أكـثر حيويـة، أخـرج مـن شـنطته الصغـيرة سرنجـة وعبأهـا بسـائل أصفـر، شـغَّل الرجـل الأول الـذي اتسـعت ابتسـامته الأجهزة والشاشـات، اقـترب الطبيـب المـليء بالحيويـة مـن المريـض النظيـف وغـرز سـن الحقنـة في ذراعـه، قبـل أن يـسري البنـج في عروقـه ودمـه سـأل الطبيـب مـرة أخـرى:

«هل تضمن نقاءه ونظافته؟».

يخـرج زميلـه طبيـب التخديـر، يغلـق مـن خلفـه البـاب، ويـرد الطبيـب الوحيـد في الغرفـة عـلى مريضـه النظيـف:

«إنه صابح. وحياة أولادي يا باشا».

بـدتْ محتويـات الغرفـة متداخلـة ومشوشـة، السـتائر النظيفـة تختلـط بالـدولاب المعقـم، المصابيـح تلمـع وتـبرق، ثـم تخفـت وتُطفـأ، عنـد هـذه الحالـة يُفتـح بـاب الغرفـة، يدخـل ممرضـان يرتديـان زِيًّـا أبيـض، يجـرَّان بينهـما نصـف إنسـان، يمسـك كل منهـما بـذراع، الرجـل الـذي يتوسـطهما لـه رأس وجـذع وذراعـان بشـكل مكتمـل، أمـا نصفـه الأسـفل فغـير موجـود، فقـط بقايـا لحـم تتـدلى كجـذر شـجرة خـرج لتـوه مـن الطـين، رأسـه يتحـرك بشـكل طبيعـي، يحـاول أن يفلـت كوعيـه مـن قبضتـي الممرضـين القويـين، ينظـر إلى الطبيـب والمريـض النظيـف، يُحـذِّر بسـبابته ولسـانه يسـتطيع إخـراج الـكلام:

«أريد أن أنبهكم لشيء. أنا لا زلتُ أحيا. أعيش وأشعر بكم. هذا فقط للعلم».

ويرد الطبيب الذي كان منشغلًا بأجهزته الطبية الكثيرة ومتابعة الشاشات المضيئة:

«نعلم ما تقول يا ...».

يرد أحد الممرضين بسرعة ويكمل لرئيسه الكلمة:

«أربعة وأربعون».

يُكمل الطبيب وهو يسحب نصف الملاءة المعقمة عن مريضه النظيف بحنو واضح:

«وهل قال أحد شيئًا غير ذلك يا أربعة وأربعون؟!».

لا يصدق الرجل أذنيه، فقد رأى أثناء دخوله طبيب التخدير يخرج من الغرفة نفسها، وهو يرى الآن مريضًا نظيفًا يستحوذ على كل العناية الطبية اللازمة، لقد قالوا له كلمات شبيهة منذ أيام قليلة، ورغم ذلك فقد خرج من الغرفة بلا نصف أسفل، للحق، خرج ذات مرَّة بقدم واحدة، ثم المرَّة الأخرى بدون القدم الثانية وبعض مكونات بطنه. فسأل نفسه: «لماذا أدخل غرفة العمليات للمرة الثالثة وأنا لا أشتكي من أي مرض؟».

قال أحد الممرضين لزميله:

«خُذ حذرك. فسوف أتركه لك دقيقة».

أفلت يده من ذراع المريض، ثم ذهب وأحضر قطعة قماش كبيرة ومسّاحة، ألقى بهما في المكان الذي علقا فيه نصف الرجل، مسح السائل المخاطي الذي كان يسيل، ثم أسنده مع زميله مرة أخرى.

لم يطمئن الرجل لمجيئه في مثل هذا التوقيت، فقد لاحظ أن رجل الأعمال النائم يحرك ذراعًا واحدة فقط، التفت يمينًا ويسارًا فرأى ذراعيه هو مكتملتين، وجَّه كلماته للطبيب:

«لماذا لا تنقلوا إليّ قدميه. بدلا من أن يأخذ هو ذراعيّ؟».

يبتسم الطبيب ويتجه ناحية المريض النظيف، كان قد بدأ يغيب عن العالم المحيط به، فسال خط كفتلة شفَّافة من بين شفتيه، أمسك الطبيب بمنديل ومسح فم المريض المُحتمل بكل الرقة الممكنة، وعاد الرجل النصف؛ المريض البديل، يوجه له الأسئلة من جديد:

«لقد جئت إلى هذه الدنيا سليمًا معافى».

«صحيح».

ينظر الطبيب للممرضين ويُديم النظرة، ودون أي كلام بينهم، يلقيان بنصف الرجل على سرير مهمل في ركن الغرفة، ويسحبون عليه ملاءة عطنة، ينام فلا يستطيع النهوض، بعد قليل يدخل طبيب التخدير مرة أخرى، وكما فعل مع المريض النظيف يفعل في نصف الرجل، يهز المريض البديل ذراعه أولًا معترضًا على أن يُحقن بالمخدر:

«مخدر لا».

يقترب منه طبيب التخدير وفي يده الحقنة جاهزة للغوص في ذراعه:

«أنت مُخَدَّر منذ مولدك. هل ستفيق اليوم علينا؟».

أمسك أحد الممرضين بالذراع المعنيَّة، وغاصت الحقنة في لحمه المرتعش، اقترب طبيب البنج من زميله وقال بصوت جاهد كي لا

يصل إلى المرضين:

«إن فاضت منه الذراع الأخرى لا تتخلص منها، فأنا أحتاجها».

يبتسم:

«ذراع فقط؟ أنت تؤمر يا باشا».

يخرج طبيب التخدير بعد أن يحوِّل الرجلين إلى جثتين ساكنتين منتظمتي الأنفاس، يتحرك المرضان كما يفعلان في كل مرة، كلٌّ منهما يعرف ما تمليه عليه مهنته، يقترب الطبيب من مريضه المحتمل، يرفع عنه الملاءة، يطمئن أولا لنبض القلب وحركة التنفس، ثم يذهب ليتفقد نصف الرجل؛ المريض البديل، لم يكن مهتمًا إلا بما يريده منه فقط، نظَّف ذراعه من الوسخ، عقمها ولفها بالشرائط الطبية البيضاء، وما تبقى منه بعد ذلك كان في عِداد «الخردة».

بدأت الغرفة تعج بالأصوات، حَزٌّ وقرقعة، طرقعات غير منتظمة، ثم همد كل شيء، سكنتْ الأصوات، فقد أصبحت الأمور كلها على ما يُرام.

رضا وصباح

تدق الدفوف في دار الحاج رضا، وتدور أباريق القرفة على الضيوف، يصبح اللون الأحمر للشربات والذبائح هو المعتاد لعيون الجيران لمدة ثلاث ليالٍ بأيامها الطويلة، فأول أمس جاء الحاج من أرض الحجاز، يزهو في جلباب أبيض مزهر، دارت الصواني بالمشاريب، عبّرت النساء عن الفرحة بالزغاريد والرجال بحلقة ذِكر والأطفال بالهيصة والأناشيد، جاء الخطاط ليعلن للجميع أن الحج مبرور، والرسام ليزيّن مدخل البيت بجمل وسفينة وطائرة.

أول المباركين كانت صباح، ولصباح معزة خاصة عند الحاج وذكريات كثيرة، مع صباح تحضر أميرة دائمًا، وأميرة الخالق الناطق صباح، عينها بقريَّة حوراء، وشعرها خروبي غزير، وخَطة عينها مرسومة بدقة في مكانها المكحول.

تأتي الحاجة بالشاي، تستقر الصينية بين صباح وأميرة، يكزّ الحاج على نواجذه وهو ينظر لصباح، تزغر له الحاجة كلما فعل هذه الحركة.

يفرك عريس الحجاز مسبحته ويحكي عن الأيام البيضاء الخالية من كل دنس، يسترسل في وصف مشاهد الطواف ورمي الجمرات، يمسح بكفه على صدره النقي وثيابه النظيفة.

قبل أن يدخل الحاج أول أمس يتوقف أمام رسمة الجمل، كانت شفته غير دقيقة، تتدلى السفلى أكثر من اللازم، لم يعلق، فهو يعرف أن صباح هي التي اشترت البويا على حسابها، وهي التي أمرتْ الخطاط وكلّمتْ الرسام، في كل حجَّة كانتْ تفعل ذلك، هذه ليست المرة الأولى التي يذهب فيها الحاج رضا للأراضي المقدسة، ولن تكون الأخيرة، فاكتساب اللقب لابد له من الاستمرارية في

زيارة الرسول بشكل دائم، لم يهتم الحاج رضا وهو داخل بأن جلبابه الأبيض شابه لون أزرق خفيف، فقد مسح بعض البويا من مدخل الدار، أكمل سيره وسط أهله وجيرانه من المدعوين، يسبقهم الأطفال وحاملو الدفوف.

«تفضلوا الشاي».

قال وهو يستعيد مراسم دخوله المهيبة أول أمس، صباح أمامه لا تزال مبتسمة، وأميرة شفطت رشفة واحدة من إبريقها، تضحك فتظهر غمازتاها تسر الناظرين، عينها بلون الحبر السائل، تشبه أمها لكنها أكثر منها نضارة وأدق نظرة، الزغب الخفيف في وجهها يشير إلى طفولة تحزم حقائبها وتغيب عن قريب.

يفتح الحاج شنطة مركونة بجواره، يدس يده الكبيرة في محتوياتها، يقلبها ذات اليمين وذات الشمال، ثم يصمت وكأنه تذكر شيئا، وبسرعة يجذب جرار السوستة فيغلق الشنطة، يرفعها بيديه الاثنتين ويقدمها لصباح وأميرة:

«كلها لكما».

وعين الحاجة لا تغفل عمّا يقال، تتابع بحرص ما لا ينطق به لسان زوجها، فقد تعودت منه مثل هذه التجاوزات، ولأن بطنها لم تلعب فيه العيال، ولم يشتعل فرنها ويطهو ولو طفلا واحدا، فقد راحت تسامحه السنة بعد الأخرى وتلتمس له الأعذار، تتأمل صباح قليلًا، لكنها تتوقف أمام شدّة صدر أميرة، تقيسها بنظرها وتقارنها بكتفي الحاج رضا، وترى المقاس مطابقًا، محجرها الغاطس أيضا، عينها الزرقاء ووجهها العريض، كل شيء في أميرة كأنه نُحِتَ من زوجها، الحاج رضا، حتى المسافة الكبيرة نسبيا بين فتحتي أنفه وشفته؛ والتي يغطيها شاربه، كانتْ كبيرة أيضا لدى أميرة،

لكن الحاجة سرعان ما تستغفر وتعود لرشدها الأرضي، وتتمتم بصوت لا يتجاوز حلقها:

«الحمد لله على كل شيء».

تفتح صباح الشنطة، أول ما لمسته أصابعها كانت زجاجات عطور متنوعة، تحتها أكياس مُغلقة، ثم ملابس موضة ملونة لا تناسب الاحتشام والمناسبة، وبرغم ذلك سُرّت صباح لرؤيتها وشهقتْ، وأميرة أطلقتْ صيحات البنات، والحاجة تتابع من بعيد، ثم تقترب من زوجها، تسند كفها على كتفه برفق:

«الضيوف يا حاج».

ينتبه للمدعوين، يرفع رأسه والدم يُكاد يضيء أوردته ويشد هامته، تلك الحالة التي لا يصل إليها مع الحاجة أبدا، ذلك الوجد المختلط بالرغبة، تلك القدرة الطاغية التي تبثها صباح بداخله، مجرد وجودها يشعل الشرايين الميتة، ويُجري في دمه نشيجًا قديمًا، شيء غامض معني بتحسين سلالة الوجود، وجود الرغبة واللذة وليس أي شيء آخر؛ كتلك المسكنات الأخلاقية المؤقتة، بعد تجاوز القشرة الإيمانية التي سرعان ما تذوب وتتلاشى، يجد نفسه وجهًا لوجه مع حائط إنساني صلب لا تستطيع الكلمات أن تعبره، ولم تفلح القوانين الأرضية في فهمه، أو حتى الاقتراب منه، ذلك الحائط الصلب الشفاف في آن، والذي يُعطي للحياة رونقها، فتأخذ الأرض زخرفها وتتزين، الرغبة المنفلتة المضغوطة، قفز متواصل لكرات الدم المشتعلة، أشياء متناثرة ولذيذة لم تستطع حزمة الأخلاق وحدها لجمها.

عين الحاج رضا توهجت كمنارة، وقلبه يكاد يفط من صدره، مشوعه المُعلّق بأهداب السماء توارى خلف الكلمات الطازجة

التي يدبرها الآن، وفتنة الطبيعة تجسّدت وصنعتْ في روحه فرحا دائمًا.

بعد أن مسح الحاج رضا الصالة الكبيرة بعينيه الواسعتين، وبعد أن تأمل ضيوفه وكأنه يراهم للمرة الأولى؛ صفق بكفيه البيضاوين، كانت الحاجة تقف أمامه:

«الغداء للضيوف».

وتعرف أن ضيوفه غير ضيوف المناسبة المبرورة، تسمع صباح صوته فتتمنع:

«عندي مشوار».

وتقف أميرة في ذيل أمها، وقبل أن تنصرف، وتحديدا بعد أن أدارتْ صباح ظهرها له؛ أمسكها الحاج رضا من معصمها بقسوة لا تناسب الموقف، وفي هذه اللحظة تحديدا، تشعر الحاجة أن الأكسجين ينسحب تدريجيا من حولها، لفّتْ صباح رأسها، أرعشت شفتيها دون كلام، أصابت هذه الرعشة ملامح الحاج باضطراب ورجفة، فخرجت منه الكلمات دون ترتيب مسبق:

«الأكل حالًا يا حاجة».

كان صوته العالي لا يناسب المسافة القريبة التي تبعد زوجته عنه، قالت وهي تتجنب الغوص في عينيه:

«نسخنه؟».

يردف وكفه لا تزال قابضة على المعصم:

«بسرعة».

تتردد أميرة بين الجلوس والانصراف، ويُسمع صوت صباح ضعيفًا:

«فرصة ثانية. تأخرنا».

أفلتت يدها من قبضة الحاج، خطت إلى الباب وهو خلفها، وزوجته خلفه، كقطار كل عربة فيه تعرف مكانها ووظيفتها جيدًا، وقفتْ صباح بالخارج وأمامها أميرة، ورفع الحاج رضا يديه الاثنتين فوق الباب، فأصبح كخفاش أبيض يستعد للطيران، اضطربت عين صباح عندما تلاقت مع عين الحاجة، لكنها لم تستمر فيها طويلًا، تجاوزتها إلى درجات السلم، تقدمت الحاجة زوجها وأصبحت أمامه، تُتابعهما تنزلان السلالم، وتسمع من خلفها صوت:

«خطوة عزيزة. شرفتونا والله».

الرجل وطريقة موته العجيبة

حلقتُ ذقني بعد أن تركتها شهرًا كاملًا، كانت طويلة مشعثة، لم يلتفت لهذا التغيير أحد، لم تُعلق زوجتي على خلو وجهي من الشَعر بعد الحلاقة، انتشرت رائحة الكولونيا وصنعت من حولنا دوائر غير مرئيَّة، صففتُ شعري ووقفتُ أمامها مدة طويلة حتى تلحظ ذلك التغيير من تلقاء نفسها، بالفعل، استيقظتْ وتركتْ السرير، نظرتْ إليّ من فوق لتحت، ثم حدثتني عن الأشياء نفسها التي كنا نتحدث عنها بالأمس، بلاطة مخلوعة في الصالة تحتاج لترميم، وحوض المطبخ يخر المياه.

ضقتُ بكلامها، فكأنني لم أقم بحلاقة ذقني، حتى أنني شككتُ في أنني قمت بفعل شيء جديد. عُدتُ إلى مرآة الحمام مرة أخرى، تأملتُ وجهي، كان محلوقًا ونظيفًا، تأكدتُ من ذلك مرتين وأنا أمرر أصابعي على ذقني الناعمة، وتأكدتُ أن المشكلة تكمن في زوجتي، فهي لم ترَ أي تغير طرأ عليّ. لم أجد ما يمنع أن ألفت نظرها إلى تلك المستجدات، فقلتُ لها بصوت رقيق يميل للرومانسية:

«ألستُ أفضل هكذا؟».

وزنتني بنظرة طويلة ولم ترد، ثم بعد شهيق عميق وزفير غاضب قالت:

«ستظل كما أنت ولن تتغير أبدًا».

أشيرُ بسذاجة إلى وجهي، أمسح بأصابعي مرة أخرى على ذقني للتأكد من نعومتها:

«لقد حلقتُ ذقني وتعطَّرت. ما رأيك؟».

لم تندهش، ظلَّتْ ملامحها ثابتة على تعبيرات باردة كما هي،

ابتعدتْ عني وخلعتْ كل ملابسها، لم تبق إلا بقميص شفاف لا يتناسب مع برودة الجو:

«كل محاولاتك للتغيير فاشلة».

قالت ثم رفعتْ قميصها حتى ركبتيها، صعدتْ السرير وتأهَّبتْ للنوم.

لمستُ كتفها بأطراف أصابعي، فتحتْ عينًا واحدة فقط لتراني، فانتهزتُ هذه الفرصة وقلتُ لها:

«أشعر بشيء غريب يحدث لي».

فتحتْ عينها الأخرى:

«أخيرًا فهمت؟».

كنتُ محتارًا ومرتبكًا وأنا أنصت لكلماتها:

«فهمتُ ماذا؟».

سألتها..

«أنك ميت».

ردت عليّ ثم قامت من نومها وتركت السرير، اتجهتْ نحوي وتأملتني جيدًا عن قرب، كاد أنفها يلمس طرف ذقني:

«أنت ميت منذ مدة طويلة. لكنني تحملتك فقط لأنني لا أحب قتل أحد».

وقفتُ أمام المرآة أتأمل ملامحي وحالي، حملقتُ جيدًا فلم أر وجهي في المرآة، سواء الوجه المحلوق أو قبل المحلوق، كانت صفحة المرآة صافية، لا تتحرك فوقها أيَّة ملامح. لوّحتُ بيدي لنفسي كما لو كنتُ أودع مسافرًا، لكن يدي أيضًا لم يظهر لها أثر في المرآة.

فتحـتُ دولاب ملابـسي، كأننـي أنتظـر هـذه اللحظـة منـذ زمـن، أخرجـتُ الكفـن الـذي أعددتـه منـذ سـنوات طويلـة، وتحديدًا عندمـا داهمتنـي أزمـة قلبيـة أجريـت بعدهـا عمليـة جراحيـة خطـيرة، بعـد خروجـي مـن غرفـة العمليـات بأيـام قليلـة اشـتريتُ كفنـي واحتفظـت بـه. يبـدو أن دوره قـد جـاء، أحـاول الآن أن أتذكـر متـى أجريـتُ تلـك العمليـة، فلـم أسـتطع حسـاب الزمـن ولا تمييـز الوقـت.

أخرجـتُ قميـصي الأبيـض الفضفـاض، ارتديتـه للتأكـد مـن مقاسـه، حاولـتُ ضبـط ملابـسي الجديـدة فلـم أسـتطع ذلـك بمفـردي، لم أود الخـروج قبـل أن أُبلِـغ زوجتـي، أيقظتهـا، فركـت عينهـا وحكَّـت رأسـها، دُرتُ في ثـوبي الجديـد لأفرجهـا عليـه، تأملّتـه جيـدا ثـم قالـت:

«هذا الرداء لا يُلبس هكذا».

لم أفهم ما تعنيه بكلمة «هكذا» استفسرتُ في براءة:

«ماذا تقصدين؟».

قالت وقد أوشك صبرها على النفاد:

«أنت ترتدي كفنك فوق الملابس».

شـكرتها عـلى تلـك الملاحظـة، دائمـا تلفـت نظـري لأشـياء أجهـل التوصّـل إليهـا بمفـردي، فهـي التـي نبهتنـي ذات صبـاح إلى أن أذني يخـرج منهـا شـعر، وفتحتـيْ أنفـي أيضًـا تلفـظ شـعيرات كشوشـة صغـيرة، كانـت مثـل هـذه الملاحظـات العابـرة دليـلًا عـلى مـرور زمـن، لكنهـا لم تكـن تُعلـق عـلى الزمـن، بـل عـلى آثـاره.

وافقـتُ عـلى شُـكري لهـا بهـزَّة بطيئـة مـن رأسـها، ثـم عـادت إلى سريرهـا مـرة أخـرى.

خلعـتُ الـرداء الأبيـض، ثـم خلعـتُ ملابـسي كلهـا، ارتديـتُ بعـد ذلـك

كفنني على اللحم، كان الجو باردًا، لم أستطع ربط الأشرطة البيضاء حول خصري دون مساعدة، أيقظتُ زوجتي، هزتها يدي برفق، وربما برقّة، فأنا لا أود أبدًا أن أسبب إزعاجًا لمن حولي، استيقظتْ زوجتي وعلى وجهها علامات الضيق، رغم أنني لا أقصد مضايقتها أبدًا، كانت في كل أحاديثها الموجّهة إليّ تحدثني عن فشلي المتكرر، وصوتها دائمًا يطن في أذني «أنت أخيب خلق الله» أقنع نفسي بأنها تمزح معي، ولم أصدق أنني خائب إلى هذه الدرجة.

ما أن استيقظت حتى كوّمتْ ملابسي التي كنتُ أرتديها منذ دقائق، عبأتها في كيس بلاستيك كبير ووضعته مع زبالة اليوم الفائت، عادت إلى وهي متأهبة ونشيطة، أدخلتْ ذراعي في القماشة وربطت الحزام، ثم صرختْ في فجأة:

«كيف سأربطك وأنت واقف تفرك هكذا؟».

نظرتُ إلى السرير، لمحتُ البطانية فطبقتها، رتبتُ الملاءة وساويت الوسائد ببعضها، في السنوات الأخيرة اعتدت أن أفعل ذلك كل صباح، لكنها صرختْ في مرة أخرى:

«كيف تفعل ذلك؟ لابد أن تعرف أنك الآن ميت. ولا يمكن لميت أن يرتب سريره».

في تلك اللحظة الخاطفة؛ قطعتُ طريقًا طويلًا وشاقًا حتى أعرف أنني فعلاً ميت.

نِمتُ على السرير وأنا أحاول ضبط تنفسي كي لا يتحرك بطني، سأحاول قدر الإمكان أن أوحي لزوجتي بخروج الروح من بدني، أغمضتُ عيني لأبدو شبيهًا بالأموات، في الحقيقة؛ لم أكن أعرف عن الأموات إلا بعض معلومات نظرية، لم أشعر أبدًا بما يمكن أن يشعر

بـه ميـت، فـكل مـا يربطنـي الآن بالأمـوات هـو قناعتـي الشـخصية بموتي.

شـدَّتْ زوجتـي الربـاط عـلى يـدي، لفتّنـي جيـدًا، بعـد أن ربطـتْ قدمـيْ نظـرتُ طويـلًا إلى أظافـري، ثـم تأمّلـتُ الربـاط قبـل أن تمـد يدهـا وتفـك عقدتـه، عندمـا سـمعتُ صوتهـا فتحـتُ عينـي، لا أعـرف لمـاذا فتحـت عينـي رغـم علمـي بـأن أذني هـي التـي تسـمع؟

«لا يمكننـي أن أربـط قدميـك، إذ كيـف سـتمشي عندمـا تخـرج مـن هُنـا وتبحـث لنفسـك عـن مقـبرة؟».

هززتُ رأسي وعدت لإغماض عيني مرة أخرى:

«افعلي ما يروق لكِ».

كنـتُ أصـوب عينـي إلى مـرآة التسريحـة الطويلـة بـين حـين وآخـر، ثـم ألتفـتُ لزوجتـي أحـاولُ فتـح مجـال للـكلام معهـا:

«أنا لا أرى نفسي في المرآة».

حملقتْ أولًا في المرآة ثم ردتْ عليّ:

«هل سمعت من قبل عن ميت يرى نفسه في مرآة؟».

عُـدتُ صاغـرًا لسـيرتي التـي ارتضتهـا لي زوجتـي، فقـد أقـرَّت بأننـي ميـت، ولم يبـقَ فقـط إلا التوقيـع عـلى ذلـك الإقـرار وإقامـة المراسـم.

عندمـا اقتربـتُ مـن بـاب الشـقة سـمعتُ بعـض كلـمات طائـرة في الهـواء، تقريبـا كنـتُ أنـا المقصـود بهـا:

«بدايـة مـن اليـوم يجـب أن تعتمـد عـلى نفسـك ولا تنتظـر أن يسـاعدك أحـد. فأنـت منـذ الآن ميـت. لـن تجـد هُنـاك مـن يخدمـك مثـلي. هـل فهمـت؟».

تضاربـت أحاسـيسي وأنـا أسـمع هـذا الـكلام، فمـن المفـترض أن يتحـدث الميت مـع أشـخاص مـن عـالم آخـر، لا أن أتكـلم، وأنـا الميت، مـع أشـخاص مـن العـالم الـذي مـتّ فيـه وأسـتعد لتركـه، كنـتُ بالفعـل مرتبـكًا، لكـن ذلـك ليـس جديـدًا، فأنـا طـوال حيـاتي مرتبـك، لا يُضير إن أصبحـت طـوال مـوتي مرتبـكًا أيضًـا.

وقفـتُ قليـلًا أمـام البـاب، لم تنتظـر زوجتـي حتـى أنـزل الـدَّرَج، كنـتُ بالـكاد أتأهَّـب للنـزول، لمحتهـا تُطفـئ المصبـاح الخارجـي الوحيـد بسرعـة وتغلـق البـاب، وكأنهـا ارتاحـت مِنـي. أحـاول تحريـك يـدي وأفشـل، كفـي عـلى الكـف الأخـرى في وضـع الصـلاة، مكبلتيـن بشريـط أبيـض، لمَّـا خفـتُ صعـدتُ باتجـاه بـاب شـقتي مـرة أخـرى، كنـتُ قـد نزلـت درجتـين فقـط، لا أعـرف لمـاذا شـعرتُ بـأن بيتـي أصبـح قديمًـا وأنـا غريـب عنـه؟ لم أسـتطع طـرق البـاب أو رن الجـرس، نطحتـه بـرأسي وحككتـه بقدمـي، فتحـتْ زوجتـي بسرعـة كأنهـا كانـت تنتظـر خلـف البـاب، وعـاد لسـانها للعمـل مجـددًا:

«كنتُ أعرف أنك ستعود الآن».

حاولت أن أداري فشلي عنها:

«أريدكِ فقط أن تفكي قيد يدي».

ودون كلام اقتربـتْ مِنِّـي، فكـت الشريـط مـن معصمـي وربطتـه حـول خصري، فأصبحـتُ كمومياء طازجـة. عندمـا تحـررتْ يـداي بعـد دقائق فقـط مـن ربطهـما لم أشـعر بحركتهـما، كأننـي مؤهـل لأن أكـون بـلا ذراعـين، أحلـتُ ذلـك الإحسـاس إلى اسـتعدادي الفطـري لأن أصبـح ميتًـا، لا أشـعر بالذراعـين، ثـم القدمـين، وبعـد ذلـك يتوقـف القلـب وتخمـل الأوعيـة الدمويـة ويتجلـط الـدم، فأحـدق في لا شيء بعينـي سـمكة ميتـة.. ثـم، ثـم لا أعـرف مـاذا سـيحدث بعـد ذلـك.

بعـد أن أصبحـتُ بقدمـين وذراعـين تتحـرك بحريـة نزلـتُ الـدَرَج بسرعـة لا تتناسـب مـع ميـت، أو حتـى عجـوز، فأنـا في السـابعة والأربعين، في شرخ الشباب الثاني، لا أعرف هـل مـن اللائق أن أموت وأنـا قـادر عـلى المـوت؛ أم الأفضـل أن أمـوت عندمـا أفقـد الصلـة بـكل مَـنْ حـولي؟ ربمـا كان مـن الأفضـل أن أمـوت وأنـا بصحـة جيـدة!

أصبحـتُ أسـفل البنايـة في وقـت قصـير، كانـت هنـاك مشـكلة لا أعـرف كيـف سـأعالجها، إذ كيـف سـأمشي كالسـهم الأبيـض بـين الأحياء الملونـين، بـدأ النهـار يُظهـر أحجـام النـاس في الشـارع، ثـم طلعت شـمس خفيفـة تُبـيِّن ملامحهـم، عرفـتُ بعـض الأشـخاص السـائرين بالقـرب مِنّـي، كنـتُ أختبـئ منهـم خلـف بوابـة البنايـة، لا أود أن يـروني وأنـا ميـت، كـما لم أكـن أحـب أن يـروني وأنـا حـي.

توقَّفـتْ آلـة الأسـئلة في رأسي، بـدأ وثـاق اللغـة ينفـرط وتصبـح الكلـمات بـاردة، لا تـؤدي إلى انفعـال أو تبـادل حديـث مـع النفـس، كانـتْ نظـرتي للشـارع مشوّشـة، وتحديـد أحجـام النـاس غـير دقيـق. سَـمِعتُ صوتًـا بالخـارج، لم أخـرج، اختبـأتُ وراء لافتـة خشـبية قديمـة ومُهملـة، لم أحـبُ أن يـراني أحـد وأنـا بهـذه الملابـس، انتظـرت حتـى عـبرني صاحـب الصـوت ثـم خرجـتُ، لكننـي قابلـتُ شـخصًا آخـر، لم يمهلنـي الفرصـة لأختبـئ عـن متابعتـه، اقـترب مِنّـي، صافحنـي بحـرارة وهـز يـدي مِـرارًا، لم يُعلِّـق عـلى ملابـسي البيضـاء أو هيئتـي الجديـدة، لم يلتفـت للأربطـة الملفوفـة بطـول جذعـي، شـددتُ يـده وجذبتـه إليّ:

«ألا يوجد فيَّ شيء غريب؟».

يرد الرجل بسرعة:

«يوجد طبعًا. فأنت تلبس حذاءً أسود لا يليق بملابسك البيضاء».

أنظرُ لقدمي بالفعل فأجد حذائي لا يليق بي، يُخرج الرجل من كيس كان يحمله حذاءً أبيض خفيفًا كالمشمَّع، ينحني بالقرب مِني، يخلع عني حذائي ويضع مكانه حذاءه المشمَّع، أجذبه مرة أخرى وأقول له:

«العفو. العفو».

ويرد الرجل بوجه بشوش:

«إكرام الميت تجهيزه جيدًا قبل دفنه. لابد أن تموت بالطريقة الصحيحة».

الرجل يعرف إذن أنني ميت، لماذا يكتشف كل من يقابلني بهذه السهولة حكاية موتي؟ كل من يراني اليوم يعرف ذلك، إلا أنا، لا أصدِّق أنني متّ، حتى الآن أشكُ في صدق هذه الرواية، بادرت الرجل الذي لا أتذكر اسمه بسؤال:

«وهل لميت أن يتكلم يا عم؟».

يضحك الرجل بصوتٍ عالٍ، يضرب كفًا بكف، ثم يشير بطول ذراعه إلى كل من يسيرون حولنا:

«أنت مستجد على الموت. وضعك الجديد يحجب عنك رؤية الحقيقة، وهل يتحدث إلينا إلا الميتون؟ نستمع لحكاياتهم في ماضينا ولآرائهم في حاضرنا ولمشوراتهم في مستقبلنا، أنت فقط ذاكرتك ضعيفة بسبب حداثة موتك».

يستوقفني كلام الرجل، أتأمل السائرين من حولي، ثم أسأله:

«وهل هؤلاء ميتون أيضا؟».

يرد الرجل بعد أن ضمن حذائي بين يديه:

«هُم ميتون. لكنهم في انتظار خروج الروح».

بدأتُ أشعر بالارتياح قليلًا، فقد زال عني إحساسي بالوحدة.

سرتُ في الشارع بثقة أكبر بعد أن تركتُ رهبتي عند بوابة البناية، كلما رأيتُ أحدًا يسير إلى جواري أشرت له، وكان يبادلني التحية دون تعليق، وذلك يعني أن كل مَنْ يسيرون من حولي يوافقون على وضعي الحالي، لاحظتُ أن جميع السائرين أقرب لنيام، بسبب نظراتهم نصف الواعية ومشيتهم فاقدة الاتجاه.

الجو الصباحي كان يقطر دخانًا أبيض.

تجاوزتُ شارعي، كنتُ أعرف أغلب السائرين، انتقلتُ إلى شارع أكبر غير الذي عشتُ فيه ومتُّ، أفضت بي الشوارع المتفرعة إلى ساحة كبيرة لم أرها من قبل. أرضها صفراء شاحبة، والناس الذين يتجولون فيها يراودهم النوم، حتى ظننتُ أنهم فاقدو الوعي. قطع أحدهم طريقي وهو منتبه أكثر مما يجب، نظر إلى معصمي بتركيز شديد وقال:

«فيمَ ستفيدك هذه الساعة؟».

نظرتُ إلى ساعتي فوجدتها لا تزال في يدي، كما هي على نفس هيئتها ولون «الأستيك» الجلدي الأسود، لكن عقاربها متوقفة عن الدوران، كيف نسيتْ زوجتي أن تخلعها عن معصمي؟ أعطيتها للرجل بنفس راضية، حَجَلَ وكاد يطير من الفرحة، ثم غاب في شبورة الشروق الباردة.

تركتُ منطقتي والمناطق المجاورة، رأيتُ أمامي صحراء ممتدة، مترامية الأطراف دائرية الرقعة، في منتصفها مدقات وحصون رملية مخصصة لعساكر الجيش، ولافتة تقول كلمات تحذيرية «ممنوع الاقتراب أو التصوير» كنتُ قريبًا منها جدًا، بدليل تمكني من

قراءتها، لكن لم تكن معي كاميرا.

تجاوزتُ العساكر وغصتُ في الصحراء، سِرتُ في قلب الرمال حتى شعرت بسخونة الشمس، لوهلة، انتبهتُ إلى وحدتي الجديدة، في لحظات معينة كنتُ أشعر أنني أعرف طريقي جيدًا، وأحيانًا أخرى أراني تائهًا وليس لدي وعي بأي شيء، وتذكرتُ كلمات زوجتي: «أنت ميت منذ مدة طويلة. لكنني تحملتك فقط لأنني لا أحب قتل أحد» لم أشعر بصدق كلماتها، ولم أشم رائحة لأي عفن، وأستطيع الآن أن أحرك ذراعي أو أنقل قدمي وأغير موطئها، على حد علمي، لا يستطيع شخص ميت أن يفعل مثل هذه الحركات، بل لا يمكنه مجرد التفكير فيها.

في قلب الصحراء طلع لي رجل كأنه شق الرمال، تمعَّن في وجهي طويلا ثم أشار إلى نظارتي:

«هل لي أن آخذها؟».

ثم أضاف قبل أن أدبِّر له الرد المناسب:

«لم يعد لها لزوم في وجهك الميت».

كلما نسيت وضعي الجديد خرج لي مَنْ يُذكِّرني به، عندما خلع الرجل النظارة عن وجهي غامتْ الرؤية وضاق الأفق، حتى عندما حاولتُ تتبع الرجل فلم أره، بدأت أمطار خفيفة ترش الرمال الناعمة. بعد قليل رأيتُ الرجل الذي أخذ حذائي ومعه الرجل الذي أخذ ساعتي، ومن خلفهما يمشي الرجل الذي سحب نظارتي من وجهي، صنعوا من حولي طوقًا، أخذوا يغنون من أجلي أغاني لا أعرفها، موسيقاهم تنبع من حناجرهم، فمنهم من يصفر ومنهم من يصرخ ومنهم من يشفط الهواء ليواكب الأنغام الأخرى، قال

الرجل الذي يلبس حذائي:

«يا مُغفل. هم قالوا لك أنك ميت كي يهدموا بيتك ويسرقوا كنزك».

وأرد عليه بنصف وعي:

«إن بيتي في الصحراء يا عم. والصحراء لا يوجد بها إلا الشمس والرمال!».

قال الرجل وهو يبتسم ابتسامة خبيثة:

«يا بني آدم. وهل توجد الكنوز إلا في الصحراء؟!».

اقترب مني الرجل الذي يزين معصمه بساعتي، عادت عقاربها تدور كأي ساعة عادية، قال:

«يا مُغفل. هل يمكن أن يموت شخص وهو واقف على قدميه؟ أنت لم تصل لمرحلة الاحتضار بعد».

ثم انصرف وهو يرقص تحت المطر، اقترب الرجل الذي أخذ نظارتي ووجَّه كلامه إليّ:

«أنت عجيب. عجيب والله، هل صَدَّقت بهذه السهولة أننا سنبحث لك عن قبر؟. أخذنا كل ما لديك ولم تأخذ أنت شيئًا. ورغم ذلك تستأمنًا على مكان دفنك. أنت إنسان لُقطة والله».

ثم لمحت الرجل الذي لبس حذائي يقترب مِنّي:

«كلماتك لم تعد تناسب الأحياء، وأفكارك أيضا».

قال ثم أخذ يحجل بحذائي ويبتعد عني.

كان يتملكني إحساس قوي بأنني أسير في الطريق الصحيح إلى المقبرة، مقبرتي التي اشتريتها بالتقسيط، لكني لا أعرف الطريق

إليها، لذلك كان لابد من دليل، والآن صار معي ثلاثة أدلاء يحاولون جذبي لأسير معهم، أنا أتذكر قبري جيدا، كان بجواره ثلاث نخلات قصار، وشاهِد عريض من خشب مدهون بالبويا البيضاء، وهذه الصحراء التي أسيرُ فيها هي البوابة التي ستؤدي إلى مقبرتي، لا يهمني ما يقوله هؤلاء الأغراب، فقد سرقوا مقتنياتي والآن يريدون أن يسرقوا جسدي، لن أعطيهم الفرصة لذلك أبدا.

ابتعد الرجال الثلاثة عني، أو بالأدق، أخذوا جانبًا وتركوني أسير وسط الصحراء دون مضايقتي، مشيتُ ولم أنظر خلفي، كان همي كُله منحصرًا في العثور على مقبرتي العزيزة، والتي أقنعني كل مَنْ حولي بأنه حان الوقت كي أدفن فيها. كانتْ الأرض تصعد بي إلى أعلى، والقماشة الطويلة التي أرتديها تجرجر من تحتي، تتعثر فيها قدمي، تجذبني الرمال أسفل التل، لكنني أواصل الصعود دون كلل، كأن مروج الجنة بانتظاري، وبعد معافرة من أجل البقاء ميتا؛ مرَّ نهار كامل ونصف غروب، اختفى الرجال الثلاثة في غلالة بدأت تطبق على الصحراء وتغلفها، ووجدتُ نفسي وحيدًا بين كثبان صفراء وسماء محملة برعد وشمس تستحيي أن تشرق.

جدي والدرّاجة

بعـد نجاحـي في الصـف السـادس صـدق جـدي وعـده، اصطحبنـي وذهبنـا مبـاشرة لمحـل الدراجـات، سِرنـا لأكـثر مـن نصـف سـاعة، لم يكتـفِ بـشراء الدرَّاجـة كي يثبـت لي بـأن مجمـوع درجـاتي كان أعـلى مـن طموحـه، لكنـه إمعانًـا في الفرحـة العارمـة حمـل الدراجـة عـلى كتفـه، مشى والعـرق يغمـر مـا ظهـر منـه ومـا بطـن.

أثنـاء عودتنـا النشيطة باتجـاه البيـت قابلنـا شـخصًا لا أعرفـه، ولكـن يبـدو مـن نظرتـه لجـدي أنـه يعرفـه، سـأله:

«بِكَم هذه الدراجة؟».

نقل جدي حمولته على كتفه الأخرى، أخذ نفسًا عميقًا ثم قال:

«قُل أنت».

يبتعد الرجل عنَّا، نسمع صوته وقد أوشك تدريجيًا على الاختفاء:

«بخمسين؟».

يلف جدي الجادون ليعدل وجهته فوق كتفه:

«صحيح. هي بِهُم».

ونـترك الرجـل يغيـب في سـلام، يبتلعـه ضجيـج الشـارع وزحـام النـاس، أتذكـر بـأن جـدي دفـع فيهـا خمسـة وسـتين جنيهـا، وأسـأله:

«لماذا لم تقل له السعر الحقيقي؟».

بدأت قطرات عرقه تروي الأرض:

«هو لن يبيع ولن يشتري. وجع دماغ وخلاص».

بعـد أن سِرنـا مسـافة قليلـة قابلنـا شـخصًا آخـر، كان يبـدو مـن منظـره أنـه غريـب عـن الشـارع، وجَّـه كلامـه لجـدي أيضـا:

«بكم اشتريتها يا عم؟».

ويرد جدي كما رد من قبل:

«ثمّنها».

«بسبعين؟»

تنفرج أسارير الملامح المغمورة بالعرق، ويطرد لسانه الطعم المالح بعيدا عن شفتيه:

«صحيح. هي بهم».

تكرر هذا السؤال كثيرا طوال مشوارنا القصير، ولا مرة قال أحد المارة السعر الصحيح، وأيضا ولا مرّة اعترض جدي على السعر المُقترح.

بعد قليل أنزل درّاجتي من فوق كتفه، طلب مِنّي أن أركبها وآخذها لَفّة، ثم أخذ يزن الجنزير والفرامل بعين خبير، يرنّ الجرس بشكل متواصل ويخبط الكرسي مرتين كإذن منه بالركوب. أثناء ركوبي الدراجة كان جدي يتابع السيارات من حولي، يقف أمامها ويشير بيديه مثل عسكري مرور، ويسبّ بعض السائقين العُمي إذا لزم الأمر، اصفرّ وجهه قليلا واختلط عرقه بالتراب. كنتُ أقود لعبتي ذات العجلتين ولا أرى إلا اختراقي للأشياء من حولي، رائحة البلاستيك الجديد تملأ أنفي والفرحة تملأ روحي، لم أنزل عنها وأترك الجادون إلا عندما وقف أمامي عيل في مثل سِني، وسألني:

«للبيع؟».

اقترب جدي بسرعة، كان قد سمع السؤال:

«فعلا للبيع. معك مئة وخمسون جنيها؟».

انصرف الولد دون أن يرد، لكن جدي رد:

«مع الناس كلها فلوس الآن؟ حاجة تقرف».

يحمل الدراجة على كتفه مرة أخرى كما الوضع الأول، يلتفت إليّ موجهًا بعض الكلمات:

«عارف. لو أردنا بيعها بالفعل. فلن يدفع أحدهم نصف ثمنها».

ثم سار بشكل أكثر جديّة، وأنا في كعبه، فقد اقترب البيت جدًا من أقدامنا.

المغفلون والحلاق العجوز

أنا شخصية في قصة.

طال شعري فذهبتُ إلى حلاّقي العجوز، رأيته يرفع مقصه في الهواء ويغني «يا وابور قُل لي رايح على فين».

كان محلُه في الدور الثالث والأخير من البناية. يجلس من قبلي زبونان، أثناء الانتظار اهتزَّتْ الأرض من تحت قدمي، رقصتُ مع الهزَّة، اعتقدتُ أنه زلزال خفيف، أقل من خمس درجات بمقياس ريختر، ثم ازدادت الهزَّة فصارت ثماني درجات، ثم تطور الأمر ورقصتْ البناية كلها، كانت الشخصيات من حولي تتحرك بشكل مطاطي، لا تلتصق بالأرض كما ألتصق أنا، بل يهتزون ويتلوون، ثم يعودون كما كانوا بمنتهى السهولة.

لا يزال الحلاّق يغني «عمال تجري قبلي وبحري تنزل وادي تطلع كوبري»، المقص في يده ثابت لا يرتعش مثل الأرض والجدران، لم ألحظ أي توتر أو اهتمام من الزبونين المنتظرين، بل.كانا يتحدثان حول أمور الحياة اليومية وهما يتمايلان، تلعب من حولهما الأشياء، وسألتُ أحدهما:

«هل سنجري؟».

ويرد الرجل الأربعيني الذي كان يمسك بالجريدة ويحل الكلمات المتقاطعة:

«ولماذا نجري؟ لو جاء دورنا فلن يكون في استطاعتنا التأخر».

ثم يندمج أكثر في جريدته، ويسأل الشاب الجالس إلى جواره:

«رئيس وزراء مالي سنة 86 وأول حرف من اسمه ميم؟».

كان الشاب منشغلًا بالبحث عن أرقام في الموبايل، لا يعبأ هو

الآخر باهتزاز الأرض من تحت قدميه، استجمعتُ شجاعتي وسألته:

«لماذا لا نجري؟ يمكننا النزول قبل الانهيار».

فَرَدَّ وهو لا يزال قابضًا على الموبايل:

«نجري من ماذا. ونجري لماذا؟ أعتقد أننا لن نجني شيئًا جديدًا».

ثم ضحك بصوت عالٍ دون سبب واضح، على الأقل بالنسبة لي. أثناء اهتزاز الأرض تحت أقدامنا؛ كان الحلاق العجوز يزن بعينيه رأس الرجل الجالس أمامه على الكرسي، يساوي شعرة زائدة، بعد قليل أخذ يتأمَّل مقاس الحاجبين، يتمايل ويتقصَّع بشكل لا يناسب سِنَّهُ، يخرج صوته بطيئًا «يا وابور.. يا وابور» مقصه يطقطق بشكل منتظم وهو بعيد عن رأس الزبون.

عاد اهتزاز الأرض من تحت قدمي يشغلني من جديد، والرجل الأربعيني الممسك بالجريدة لا يزال يبحث عن رئيس وزراء مالي سنة 86، والرقم الذي يبحث عنه الشاب الممسك بالموبايل لم يجده حتى الآن، والحلاق العجوز يطقطق بمقصه ويحلق الهواء.

تركتهم جميعا وجريت، لم أنتظر المصعد، قفزت متجاوزا السلالم زوجيَّة وثلاثيَّة حتى أصبحتُ في الشارع. رغم الخوف، لم يمنعني الفضول من النظر خلفي، كانتْ البناية تهتز بقوة، ثوانٍ قليلة مرَّت ثم بدأ الدخان يتصاعد، وسمعتُ أصواتًا عالية تختلط بصرخات مكتومة ورجَّة تهز الأرض تحت قدمي، خفتُ من النظر خلفي مرة أخرى، ظلّ الدخان يعلو حتى عانق السماء، اجتاحتني أحاسيس متضاربة.

لكن بعد أن سكن الصراخ وهدأ الغبار سمعتُ صوتًا:

«أنت شخصية مزيفة. هل هناك شخصية حقيقية تهرب بهذا الشكل المخزي؟».

كان صوت الحلاّق العجوز. والكلمات تخللتها طقطقة مقصه الرتيبة، ثم صوت ضعيف «ما تقول يا وابور رايح على فين».

استفزني الصوت، فأنا لم أتخيَّل نفسي أبدًا شخصية مزيفة، استدرت للخلف فوجدتُ البناية لا تزال منتصبة، عاد الزمن قليلًا للوراء، فعاد الغبار إلى مكوناته الأولى تحت دهان الجدران وبلاطات الأرضيَّة، تكوّنتْ البناية من أنقاضها كما كانتْ قبل نصف ساعة، فعُدت إلى حيث جئت دون إرادة كاملة مِنّي، صعدتُ السلم، ورأيتُ مرة أخرى الرجل الأربعيني الذي يمسك بالجريدة ويبحث عن اسم رئيس وزراء مالي سنة 86، ولكني عرفت عنه هذه المرَّة بعض معلومات إضافية، لم يكن الرجل تافهًا يضيّع وقته كما كنتُ أظن في المرة السابقة، عندما مُنِحتُ حياة ثانية اكتشفتُ تفاصيل أخرى لم أكن أعرفها، فقد أصيبتْ زوجته بمرض لا شفاء منه، ثم ماتت وتركت له أولادًا وبناتًا، وأصبح يعمل خمس عشرة ساعة في اليوم، ويُسرّي عن نفسه بحل الكلمات المتقاطعة في الحمّام وعند الحلاق. والشاب الذي يجلس إلى جواره لم يكن تافهًا ويلعب في الموبايل، لكنه كان يساعد الرجل الأربعيني، على محرك البحث «جوجل» نقر حرف الميم، حاول أن يقرأ الاسم الصعب لرئيس وزراء مالي سنة 86.

بدأتْ البناية في الاهتزاز مرّة أخرى، تمامًا كما حدث من قبل، وفكرتُ في الهرب من جديد، تمنيتُ لو خرجتُ من المشهد، لكني لا أعرف لماذا لم أهرب، فمصير الشخصيات الحقيقية أمثالي لابد أن يكون واضحًا، التزمتُ بالدور الذي كان عليّ أن ألعبه، شخصيتي

الحقيقية المفترض وجودها في القصة، فأنا لابد أن أموت الآن، مر من حياتي أربعون عاما، فعلتُ فيها كل ما يمكن أن يفعله إنسان، وكل ما أستطيع التخطيط له في السنوات القادمة؛ لن يخرج عن كونه تكرارًا رتيبًا لأشياء فعلتها من قبل.

تأكدتُ الآن من أنني شخصية حقيقية، لكنها شخصية عابرة في قصة تكررتْ ملايين المرات، عندما تملّكني ذلك الإحساس استسلمتُ، جلستُ بجوار الرجل الأربعيني أبحث معه عن رئيس وزراء مالي سنة 86، والشاب لا يزال يحاول قراءة الاسم الصعب فوق شاشة الموبايل، والمقص الذي يمسك به العجوز يطقطق دون داعٍ، لم أعد أهتم بالأرض التي تهتز تحت قدمي، أخذتُ أدندن، وأصبحنا صوتين «رايح على فين. ما تقول يا وابور».

لكن البناية لم تقع، فقط رقصتْ وبعدها استقر الحال، ثم سَمِعتُ صوتًا يجاهد كي يصل إلينا، نطق بالاسم الذي كنا جميعا نبحث عنه، رئيس وزراء مالي سنة 86 وأول حرف من اسمه ميم.

«مامادو دمبلي».

الشجرة وما تحتها

«عشتُ معكِ ستين عامًا، ولكنني لم أعش فيكِ إلا دقائق، وربما لم أعش أبداً».

قال الرجل العجوز وهو يبكي، ولبكاء العجائز شكل البيت الآيل للسقوط، أشفَق عليه بعض المارة، بالكلمات تارة، وبمحاولة النهوض به تارة أخرى، لكنه لم يبرح مكانه، ينظر إلى بصمة قدميه ويربت على التراب، يحدق بوسع ما أمكنه من رؤية، لا يمسح دموعه، تنزل فوق جلد كفه وتدبغه، يناجي ورق الشجر والعصف الهائش تحت قدميه:

«لماذا لم أنظر طيلة المدة في عينيكِ؟».

من حوله جاءته بعض العطايا، زجاجات مياه وساندويتشات، علب مناديل وعصائر، لم يرفضها ولم يقبلها، ركنها بجوار قدميه كما هي، كان المارة وكأنهم معتادون على ذلك المشهد في وقت معين من كل عام، يبدو ذلك من تجنب إلقاء الأسئلة عليه، وكذلك بسبب ما يقدمونه له، لكن الرجل لم يكن متفاعلًا مع جمهوره الصغير الذي صنع سياجًا محدودًا من حوله، كان من السهل معرفة أنه يعيش في عالم ليس له وجود، كيانه كله هناك، بجوار رأسه، وجسده هنا فقط كي لا يعامله الناس على أنه عفريت من الجن، لكنه جسد سلبي وبارد، لدرجة أن قياس الحرارة عند العنق لابد سيختلف كليًا عنه عند الكتف، رأسه يحيا على أنقاض جذعه وبعض ذكريات قديمة، لم تعد تصرفاته وكلماته الدافئة في حسبان أحد، لدرجة أن الناس لم تعد تشغلهم نوعية ذلك العالم الذي يسرح فيه، بل يكتفون فقط بمعرفة أنه يسرح في عالم بعيد عنهم.

يقوم مثل قرد كبير هدّته السنون وشفطتْ منه كل نشاط

ممكن، منحنٍ وله قتب واضح لا تخطئه عين، يتحرك من مكانه بثقل ضفدع مربوط بأصفاد، يحرك قدمه قليلًا ثم يعيدها إلى المكان نفسه، تتقصف أوراق الأشجار الجافة تحت قدميه، وكمن تاه منه شيء منذ زمن بعيد يلف حول الشجرة ببطء، يلمس لحاءها ويستند إلى أحد الفروع، ثم يعود من جديد لكلماته التي لا يفهمها مَنْ حوله:

«لو عدتِ ليوم واحد. آه. سوف أنظر في عينيكِ حتى يوم الدين. ليفضيا لي بالأسرار».

يمر شخص يقاربه في العُمر، يوجه كلماته إليه من بعيد قبل أن يُقبل على الجمهور الصغير:

«لقد نقلوا كل شيء منذ خمس سنوات، هناك عند أطراف المدينة. ونقلوا معه ما تريد. لم يعد أحد هُنا».

يقول توضيحه السريع ثم يمضي لحاله. لا تبدو على العجوز علامات سماع الرجل العابر، لكنه يكمل ما بدأه:

«يا كلكم. ليتكم تتعظون. تنظرون في أعينهن مباشرة. كسهام الصيد. فربما تكون المرة الأخيرة التي فيها تُبصرون».

كان الجمهور الصغير قد ازداد في العدد، أصبحوا حوالي عشرين، لكنهم غير ثابتين، فينصرف أشخاص ويأتي غيرهم، كأنهم اتفقوا بشكل غير معلن على أنهم يظلون عشرين، لا يزيدون ولا ينقصون.

عندما خارت قواه وأصبحت الجلبة أعلى من قدرات أحباله الصوتية صمتَ، أو بالأدق صمت لسانه فقط ولم تصمت مناجاته الداخلية وتعبيرات ملامحه. ربما ازدادت حِدَّة عندما همد لسانه عن الحركة، قام وهو يحمل الشنطة الكبيرة المملوءة بهدايا المارة

الطيبين، أمسك بأرغفة الفينو المحشوة بالرومي والبسطرمة وفركها في الأرض، أخذ ينثر فتاتها وهو يسير ببطء:

«ربما أنتِ الآن جائعة».

ثم علق زجاجة المياه في حبل وربطها في جذع الشجرة، استل دبوسًا وثقب الزجاجة من قعرها، وَخَزَها أكثر من مرَّة فخرَّت قطرات منتظمة غاصتْ تحت أوراق الأشجار الجافة:

«وربما أنتِ الآن عطشانة».

ترك الزجاجة تُفرغ ما فيها ببطء وابتعد قليلًا، ثم تاه وسط الناس وكأنه واحد منهم، حتى أنهم عندما سألوه لم يرد، كان يكتفي بهز رأسه على كل كلامهم، مشى بعيدًا ولم ينظر خلفه ولا مرة واحدة.

النُّطفة وروحها

قبل أن يُشق لي محجران وأرى، وقبل أن أعرف شكل الحروف، رأيت ناسًا وأحداثًا ما زلت أبحث عن مكان لقائهم الأول، أطفالًا نبتت لهم ذيول بين سيقانهم، ونفرت لهم خياشيم تغلق نصف فتحة الفم، فأصبحوا بذلك لا يخشون الأمواج ولا الأعماق ولا الارتفاعات، فقد نبتت لهم، في مراحل لاحقة، أجنحة عند الخصر تستطيع حمل الواحد منهم لما فوق السحاب بقليل، أما الرجال فكانوا بثلاثة أقدام، ظلت القدم الوسطى تنكمش وتتنازل عن عظامها حتى أصبحت في حجم إبهام، ثم بدأ ينمو حولها شعر غزير دون أن يكسوها، على عكس القدمين الأخريين.

كان هناك أيضا نساء يرقدن على أجنابهن في انتظار أبنائهن، انتزعت إحداهن صندوقي الشمعي من صناديق لافتة ومثيرة، ألوان كثيرة كنت أراها، لم يعد لها أي وجود الآن، النظر المحدود لعينيّ أحاط بما يجب عليّ رؤيته، أفتحهما على آخر اتساع، لا فائدة، فالطريق الطويل لعملية الانتزاع يأخذ الكثير من متعة الروح، أين الأسد المستكين الذي يمشي على ستة أقدام وهو يتأمل لحم الغزالة المترهل وخطوتها البطيئة؟ أين ذهبت السلحفاة التي تطير وهي تتنازل عن مئات السنين من عمرها؟ والأرنب الذي يسير ببطء تائهًا كالمنفي في الأرض، أشجار كثيرة تتحرك باتجاه نهر طويل بأوراقها وثمارها، تذهب للحيوانات في المراعي، تتوقف عند فمها الكبير الذي يقسم الرأس لرأسين.

رأيت رجلًا عجوزًا ومنكمشًا يسير بجوار البهائم وهو يصرخ «البرسيم يأكل البهائم. البرسيم يأكل البهائم» اقترب منه عجوز آخر حتى يتبين الأمر، وكعادة العجائز لا يلحقون شيئًا. كانت

البهائم مائلة على جنبها ونافقة، وعرف العجوز الأول أن البرسيم كان مسمومًا.

كان هناك في وعيي الذي لم تسمح ظروف ما باكتمال تشكيله كوبري صغير يشبه زلاجات الأطفال، له سطح فضي، يرسو في ميدان كبير بمثابة الرحم الملآن بالأطفال دومًا، ينزلق الطفل وهو يلهو، يلبس الكافولة ويهرش فيما بين فخذيه، يلتقطه أحد الأبوين ويذهبان، يأتي غيرهما فيلتقطان طفلًا آخر... وهكذا، المعدة والقصبة الهوائية لم تُخلقا بعد، كان في البطن طبقان أسطوانيان، واحد عند الصدر والآخر عند البطن، واحد كالماجور مهمته تنظيم الهواء، عندما يفرغ ينام صاحبه، أما الآخر فهو للطعام والشراب، عندما يُملأ يجري الموعوك إلى الخلاء.

بدأت الأجساد تشق طريقها لمعرفة الروح، كل روح تلبس الجسد المناسب، كانت هذه العملية هي الأشد خطورة في كل المراحل، فهناك بعض الأرواح التي سكنت أشخاصًا عن طريق الخطأ، ظلت هذه الأرواح البائسة تتحرك وتتلوى داخل أجسادها الضيقة؛ حتى يصل صاحبهما المسكين لشيء من اثنين، إما اللامبالاة والتغاضي عن كل ما يشعر به إذعانًا للقوانين الجديدة، وإما الجنون الذي غالبًا ما كان يصادف الأرواح الحرة الشريفة، كانت عملية التوزيع غالبًا غير عادلة.

فمن أكثر المشاهد التي كنت أراها ولا أتذكر ملامح أشخاصها ولا تفاصيل مكان حدوثها، عندما رأيتُ رجلًا عجوزًا يضاجع عنزته بعد أن يلهيها بعيدان البرسيم، دخل عليه شيخ صالح ورآه على هذا الوضع، فما كان إلا أن نهره على فعلته ولم تهدأ ثورته إلا عندما استتابه.. وندمت.. وعزمت.. أكيدًا.. ألا أعود.. أبدًا.. أبدًا.. «إن لم

ترتدع عن فعلك هذا سأكون أول من يبلغ زوجتك الجميلة»، قال الشيخ الصالح ثم انصرف، أخذ يدق عصاه فوق الأرض بشكل تمثيلي، يخفف وقع العصا وكأنها تبتعد به عن المكان، خَدَعَ صاحب العنزة وأوهمه أنه انصرف، وعندما تلصص عليه من ثقب الباب وجده قد عاد مرة أخرى لما نهاه عنه، فما كان منه إلا أن دفع الباب وأمطره بوابل من أقذع الشتائم، أخذ يضربه بالعصا ويركله، والمسكين لا يقوى على الرد، ولكنه يقوى فقط على الدفاع عن نفسه بذراعيه، صرخ الشيخ حتى جاءت زوجة الرجل ورأته على هذه الحال، توسعت الدائرة حتى أصبح المشهد يضم أهل البلدة جميعا، وقفت الدواب وهي تنظر لصاحب العنزة على أنه بطل، يريد أن يُحسِّن السلالة بمولود نصفه من البشر ونصفه من الغنم، خطوة على طريق عودة بعض الحقوق لأصحابها، كانت زوجته وأولاده والشيخ يرونه رجلًا نجسًا، لا يستحق سوى الشنق في ميدان عام، كيف يترك زوجته الجميلة التي يغازلها الرجال في كل خطوة، وينظر لعنزة؟ أما آراء أهالي البلدة الكثيرين فقد كانت مثلهم كثيرة ولا مجال هنا لذكرها، لكن يمكنني أن أقص كيف عاقبوه.

وقف الرجل في قفص من حديد، الناس المعطرون الذين يلبسون الوشاحات يتلون عليه رأيهم في المسألة، سيسجن خمس سنوات، تقبل الرجل الحكم بصبر وعدم انزعاج، فقد كان يعرف تمام المعرفة أن روحه بها خلل، لكن عقله سليم ومتزن وهو غير نادم على ما فعل، إنما نادم على نظرات الناس الذين لا يفهمون طبيعة روحه، كان يعرف أن من حكموا عليه إنما تستقر أرواحهم بين ضلوعهم في سكينة وراحة بال، وأنهم راضون عما يفعلونه، مثله تماما، فهو

أيضا راضٍ عما فعله، ولا يرى تعارضًا سوى في إيحاءات الناس الذين لم ينتبهوا إطلاقا لهذا الخلل الذي أصابه قبل أن يستقبل روحه.

قبل أن يدخل هذا الكيان الشفاف إلى الجسد يكون نقيا، مبهما إلى حد ما، المفاجآت لا تعرف بالطبع أنها مفاجآت، تسارعت عند هذه النقطة روحان وولجتا كيانًا واحدًا، كاد التسارع يفتك بالجسد البائس، كان في ذلك الجسد مسام شمعية يمكن ولوج أكثر من روح عن طريقها، والأرواح سابحة في بحور مظلمة وبعيدة كأشباح لم يستدعها أحد، تصارعت الروحان في جسد المسكين، حاول أن يستأنسهما كي يصبحا كيانين ساذجين ففشل، حاول أن يثنيهما عن التساؤلات التي يتوصلان إليها فلم يستطع، تريد كل واحدة أن تثبت أنها على حق في عرض بعض مسلماتها، تتدخل الروحان في كل كبيرة وصغيرة للجسد الشمعي الضعيف، حاول المسكين أن يضع حدودا وجداول صارمة للتعامل معهما فخانه جهده المتواضع، تحددت المسارات بعد ذلك ليس عن طريق البراءة ولا عن طريق الذنوب لكن عن طريق التضارب، تنغرس الروح الشفافة الكبيرة خارج الجسد، يتم الإفراج القسري عن كيانها السحابي الهائم، يحدث ذلك غالبا بمساعدة طلقة طائشة أو صديق خائن أو سائق أعمى رشقت حافلته في قاع نهر.

الموت وسباطة الموز

أشتري الفاكهة بعد كل صلاة جمعة من سيدة عجوز، امرأة قعيدة تجلس خلف أقفاصها. لكثرة ما رأيتها جالسة لم أتخيل لها ساقين، قالتْ لي وأنا أتسوّق الفاكهة بعيني:

«لم تأتِ الأسبوع الماضي!».

«آه».

لم ألتفت لسؤالها بوعي كامل، كنتُ أنظر إلى أنواع الفاكهة لأحدد ما سأشتريه، أقارن بين سباطة الموز الصفراء وأقفاص العنب المرصوصة. يهتز جذعها، تقول:

«أشرف تعيش أنتَ».

أتوقَّف عن التفكير في نوع الفاكهة التي أريدها، تنزل عيني من فوق سباطة الموز، أنشغلُ بِجُملتها الاعتراضية، وأخمن بأن أشرف هذا هو ابنها.

«سبعة وأربعون سنة. وأربعة عيال».

لا أجد ردًا على كلامها، فأنا لا أعرف أشرف، أنا أعرفها هي بالكاد، ولو أنني قابلتها في مكان آخر غير فرشة الفاكهة فلن أتعرف عليها، أحاول أن أبدي تعاطفًا معها، أهز رأسي بأسى، أنتظرها حتى تنهي كلامها وتتبعه بزفرات حزينة وصمت، تتوقف عيني عن فرز البرقوق، وأتأمل سباطة الموز مرة أخرى:

«أصابه المرض البطَّال».

وأخمن بأنها تقصد السرطان.

«لم يكمل ستة أشهر».

«آه. ربنا له في ذلك حِكم طبعًا».

تلمع عينها وتترقرق بطبقة دمع شفّافة، تغيم، تتابع شريطًا قريبًا من الأحداث، يمر أمامها ولا أراه، تركز بصتها على فرش الطماطم المقابل لفاكهتها، لا يبدو على ثبات نظرتها أنها ترى الطماطم أو بائعها الذي يصخب بصوت منغم. تمد يدها كالمسحورة إلى منشة الذباب، تضرب بها مرتين فوق العنب، يهيج النحل الكبير وبعض هوام، تتوقف أمامها سيارة نصف نقل، يسألها السائق:

«كم قفص يا أم أشرف؟».

وتفيق فجأة، تهز رأسها برعشة، كمن يتم سحبها من بقايا حلم رقيق:

«خمسة».

ينط صبي صغير كقرد فوق صندوق السيارة، ينزل أقفاص العنب، ثم يتكوَّم مرة أخرى بين البضاعة:

«كان أشرف هو الذي يشتري لي البضاعة من سوق العبور».

«آه».

«أحلى بضاعة».

«فعلا. أكيد كانت بضاعة نمرة 1»

تزداد ضربات المنشَّة، على العنب بالذات.

«ماذا ستأخذ؟».

أتأمل سباطة الموز التي لم تترك خيالي منذ مجيئي، أنتقي الجزء الذي راق لعيني، تمد يدها على العمود الأصفر الكبير وتلفه في الهواء كذبيحة صغيرة:

«كم كيلو؟».

«ثلاثة».

تضرب المنجل في السباطة وهي جالسة، تتلقى بيدها الأخرى الجزء المقطوع، تضعه في الميزان الذي لم يطب، تُضيف إصبعين فرط من كومة صغيرة بجوارها حتى يكتمل الوزن:

«هل أزن لك شيئًا آخر؟».

«اثنين عنب».

لم يكن ما يشغلها قد غاب نهائيًا عن خيالها، تحكَّمتْ بقاياه في نظرتها الباهتة للعنب وهي تُعبئه، توقفتْ يدها عن سحب العناقيد ووضعها في كفة الميزان:

«آخر مرة أشرف هو الذي اشترى لي فيها العنب. كان أحلى من هذا بكثير».

«فعلا».

«ربنا اختاره يوم خمسة وعشرين رمضان، قبل ليلة القدر بيومين، أيام مباركة».

«أكيد».

لم أكن متدربًا جيدًا على رد كلمات المواساة، أبدو خائبًا في مثل هذه المناسبات التي تحتاج إلى ملاحقة المتحدث بجُمل معيَّنة.

بعد أن وزنتْ العنب وضعته في شنطة، ثم ناولتني الشنطتين وابتسمتْ، أمسكتْ بالمنشَّة، هاج الذباب النشيط، طارت النحلات الكبيرة وأحاطت برأسها من جديد.

الخبيئة والليل

في المكان نفسه من كل عام يقوم بحرق قش الأرز، تكونت من جراء ذلك حفرة في حجم غرفة صغيرة، غاطسة بما يكفي لدفن خمسة أشخاص، جلس على حافتها يتأمل شيئًا ما يبرق أمامه، كان الجو ليلًا، تلمع في السماء نجوم، والقمر يضيء التراب فيتحول لما يشبه سنابل قمح ذهبية، مد يده متوجسًا، رفع يده الأخرى في الهواء تحسبًا لأية مفاجأة، لم تحدث مفاجآت، سحب يده وأصابعه تقبض على شيء ما أشبه بصُرّة، لكنها ليست كذلك، فالصرّة من ملابس أو خرق، أما الكنز الذي كان من نصيبه فمغطى بغلالة صوفيَّة هشَّة كالزغب، حولها شجيرات صغيرة كقرنبيط وليد، ومغطاة بأسنَّة ليست جارحة، الأسنَّة ترابية اللون تشوبها حُمرة، تظهر عنها أسنان ذهبية براقة، هي تحديدا ما جذبت انتباهه، لم يحرك عينه عن شعاعها الخلاب منذ رآها، الصرة في حجم رأس ثور، ولكنها مستديرة وغلافها يشبه الفِطر، سحبها ومشاعره متضاربة، فرحة تشوبها رهبة، انتصار، اختصاص سماوي بهِبة كبيرة.

جذب الصرة، رفعها وأخذ يتأملها كمن يناجيها أن تفصح عن سرها. كانت خفيفة بشكل لا يتناسب مع مظهرها الضخم، حملها على كتفه ممسكًا فيها بكل ما أوتي من عزم. ولكنه تذكر عيون الناس «لا يترك أحد أحدًا في حاله»، قال مخاطبا نفسه بصوت غير مسموع، لم تستمر مناجاته طويلا، خلع جلبابه ومن بعده صدريته، ثم خلع قميصه الدبلان ولف فيه كنزه الذي اختصته به السماء دونا عن كل خلق الله، ثم لبس مرة أخرى صدريته وجلبابه ومشى يشق الطريق.

في الليل، القرية كلها نائمة كما لو كان سكانها أمواتًا، يمر على

البيـوت وكأنهـا قبـور، لا يسـمع سـوى هسـيس وقرقعـات خفيفـة وبعـض نقيـق تعـوده مـن كـثرة مـا سـمع فأصبـح كعدمـه. وصـل إلى بيتـه القريـب فكـوّم بعـض ملابـس في دولابـه وأضافهـا لأخـرى بجوارهـا، اخـترع مكانـا فوريـا لكنـزه، ثـم وضعـه برفـق فـوق أعـلى رف، ثـم نـام، ليـس نومًـا كالـذي تعـوده في الليـالي السـابقة، ولكنـه نـوم مـن ذلـك الـذي يجهـد صاحبـه أكـثر ممـا يريحـه، لم يشـعر بوجـود زوجتـه جـواره، ولا ولديـه الطفلـين النائمـين.

أيقظـه في الصبـاح ألم في بطنـه، دخـل الحـمام وخلـع جلبابـه وصدريتـه، لمـح بقعًـا حمـراء داكنـة عنـد أعـلى صـدره، لمسـها بإصبعـه فشـعر بـالألم مُضاعفًـا، بُقعًـا كبقايـا عنـب ملطـوع فـوق نصفـه الأعـلى، وبعـد الخـصر حتـى القدمـين بقـع أخـرى تتشـكل، صفـراء لم تتأكـد بعـد، خـرج مـن الحـمام يغالـب الألم ويتسـنّد إلى الجـدران.

زوجتـه نائمـة، وأبنـاؤه أيضًـا، تحمّـل الألم عندمـا تذكّـر الكنـز، خبيئـة الأمـس، اقـترب مـن الـدولاب الـذي يحتويهـا، فتـح اللفافـة، اطـمأن لوجـود كنـزه كـما هـو، لم يسرقـه أحـد، ولم يلمحـه عابـر بالأمـس، وبذلـك، فإمكانيـة تعرضـه للحسـد سـتصبح صِفـرًا، هـذا أكـثر مـا يشـغله، ألاّ يعـرف أي مخلـوق أن في بيتـه كنـزًا.

اسـتيقظت زوجتـه عـلى الألم نفسـه، وأبنـاؤه، الجميـع يمسـكون صدورهـم وبطونهـم، تذهـب الأم إلى الحـمّام، وتـرى البقـع الحمـراء تحـت ثدييهـا، والبقـع الصفـراء عنـد خصرهـا، تخـرج وهـي تمسـد صدرهـا بكفهـا، تحكـه بشـدة، يـصرخ طفلاهـا، يجـذب أحدهـما ملابسـه بعيـدًا عـن صـدره، ويبـكي الآخـر والنعـاس يغلـق عينيـه، ويسـأل هـو نفسـه: مـا الـذي حـدث ليلـة أمـس؟ لم يـره أحـد وهـو يحمـل الكنـز، فقـد خبّـأه جيـدا، وتجنّـب عيـون النـاس، تُـرى، مـن ذا الـذي حسـده

وخمَّـن وجـود الكنـز معـه؟!

الولد والبهلوان

كان يجوب الشوارع بحثًا عن الرزق، يلبس ملابس مزركشة ويرسم ابتسامة وهميَّة فوق ملامحه الشاردة، عندما لم يجد أحدًا يعطيه شلنًا يوحد ربنا؛ ظل يمشي حتى رأى من بعيد مسجدًا، دخل ليتوضأ ويصلي؛ ربما يفتحها الله عليه ويجد أحد العابرين يعطيه شلنًا، وعندما بدأ في الوضوء اختلطتْ الألوان على وجهه، وظهر بقوة اللون الأبيض مع الأحمر، وجهه يكاد يخلو من الملامح، لكنه مُشع ومُضيء.

عندما بدأ في الركعة الأولى كان يُصلِّي وحده، وفي الركعة الثانية وقف من خلفه خمسة رجال، وقبل انتهاء الصلاة مباشرة أصبح وراءه عشرون رجلا، انتهى البهلوان من الصلاة، لكنه شعر بضيق لا يعرف له سببًا، ربما حنَّ لألعابه الحُرَّة قبل أن يخرج من المسجد، فقام وقدم لجمهور المُصلين بعض فقراته، ققفز وتزلج على الأعمدة الرخامية، تعلق بمروحة السقف كقرد يقفز بين الأغصان، وهُنا، انقسم المصلون في المسجد إلى فريقين، فريق يتفرج ولا يريد لفقرات البهلوان أن تنتهي، والفريق الآخر يرى أن ما يحدث في بيت ربنا حرام ولابد من طرده، استمع البهلوان لكلمات الفريق المعترض وقال لنفسه:

«حتى بيت الله سيطردونني منه؟ أنا لا أجيد الصلاة. وأخطئ في قراءة الفاتحة، ولكنني أجيد عمل البهلوان ويمكنني إعطاء دروس فيه».

أمسكه خادم المسجد من قفاه ومشى به في اتجاه الخروج، قال له:

«هذا الذي تفعله ينفع هُناك في السيرك. أما هُنا فلا يوجد إلا

الصلاة وقراءة القرآن يا كافر».

لم يَغضب البهلوان من طرده بهذا الشكل المُهين بقدر غضبه من وصفه بال»كافر». خرج حزينا يجوب الشوارع حتى قابل طفلا صغيرا لا يملك من النقود شيئا، ولكنه برغم ذلك يملك فضولا قويًا، فقال للبهلوان:

«أريدك أن تُعلمني كيف تقفز دون أن تقع».

رد البهلوان على الطفل:

«وأنا أريدك أن تعلمني كيف أُرضي ذلك الشيخ الواقف هُناك. اتفقنا؟».

فقال الطفل:

«اتفقنا».

ظل البهلوان يُعلم الطفل الألعاب لثلاثة أيام، والولد يُحفِّظ البهلوان القرآن ويعلمه أصول الوضوء وعدد الركعات في كل صلاة، في اليوم الرابع كان كل منهما قد أتقن ما علمه الآخر إيَّاه، ثم ذهبا إلى المسجد، صلى البهلوان وجلس يقرأ القرآن، وصلى الطفل ثم أخذ يقفز بين مراوح السقف ليُجرِّب ما تعلمه، ولكن خادم المسجد لم يتعرض للطفل باللوم، فاقترب البهلوان منه وسأله: «لماذا لم تنهر الطفل مثلما فعلت معي منذ أربعة أيام؟» فرد عليه: «هذا طفل لا يؤاخذ فيما يفعل. بالإضافة إلى أنه ابني. ولكن قل لي من علمك قراءة القرآن بهذا الصوت الجميل؟» فقال البهلون: «ابنك»، فرد خادم المسجد:

«ما شاء الله».

رددها ثلاثا، ثم أشار لابنه الطفل فأتى مسرعًا وهو يقفز ويلف

حول الأعمدة الرخاميَّة، فسأله أبوه:

«ومن الذي علمك أن تقفز هكذا مثل الشياطين؟».

فأشار الطفل إلى البهلوان، انتفض الأب خادم المسجد وأمسك بالبهلوان من قفاه مرة أخرى وسار به في اتجاه الخروج، ثم قال له:

«اخرج من بيت الله يا كافر».

خرج البهلوان، وأثناء سيره قابل طفلا آخر يمسك نايًا في يده، فقال للبهلوان:

«علمني كيف أقفز مثلك دون أن أقع».

فقال له البهلوان:

«وأنت علمني نفخ الهواء في الناي. ليتني أعرف كيف تخرج من بين ثقوبه الأنغام».

أخذ البهلوان يعلم الطفل حركاته وقفزاته، والطفل يُعلِّمه العزف على الناي. جلس البهلوان على حجر، ينفخ في الناي ويتفرج على الطفل وهو يقفز، ولكنه لم يبتعد كثيرًا عن محيط المسجد.

البائع وخياله

«فووول»

حماري الوحيد، يا صديقي الجميل، أنت لن تفتن عليّ، أنا متأكد من ذلك، فالفتنة أشد من القتل، القتل، هه، لقد اقتربنا من الموضوع يا حماري، المهم ألا تنقل ما سأقوله لزبائني الملعونين، ليس لأنك تعرف تلك اليد التي تقدم لك البرسيم مرتين في اليوم، فأنت تُخلص لأي يد سواء تمتد إليك بالبرسيم أو بالعصا، أنت لا تبالي؛ كالعاشق عندما يحب الدنيا كلها، فلا يهتم بمن يكرهه أو يسخر منه.

اسمع يا حماري، هناك أمر جديد أريد أن أحكيه لك.

هؤلاء الزبائن الذين أناديهم بأسماء مستعارة، مثل: «يا باشا»، أو «يا هانم»، أو «يا حبيب قلبي» كل هذه الألقاب إن هي إلا أسماء تعلمتُها من قسوة الأيام، سماها لهم مَنْ قبلنا، وأنا أقولها من أجل راحة دماغي ليس إلا، لكنني في الفترة الأخيرة راجعتُ نفسي، أي باشا هذا الذي يلعنني في سِره كلما أخذ كيس فول؟ يرفع عقدته بين أصابعه ويرمقه من فوق لتحت، يظن أني أسرقه؟ وأي هانم تلك البدينة التي تفوح رائحة ملابسها بنتن لا يحتاج لحاسة شم قوية كي تكتشفه، وأي حبيب قلبي ذلك الولد الذي يهرول إليّ دون سروال والذباب ملموم حول رأسه كالدوّامة؟

في البداية، قلت في نفسي إنني سأتجنب التلفظ بمثل هذه الألقاب بعد ذلك، سأنادي الرجل باسمه، محمد أو جرجس أو عبدالحليم، وأنادي المرأة باسمها، نادية أو شربات أو أم الخير، أما العيال، فسأكتفي بأن أقول لهم «يا بابا. أو يا قمورة». لكن لم يطاوعني لساني، أتعرف لماذا يا حماري المخلص؟ لأنني ولدت

فوجدت الدنيا جاهزة لاستقبالي وفيها مكاني بالضبط: ما سأعمله، ومن سأتزوجها، وأيضا ما سوف أقوله وما سيُقال لي، ما سأعيشه وما سأموته.. كل ذلك سبقني إلى هنا، إلى هذه الأرض، لم ينقص فقط إلا مجيئي عندما استوت تلك الأشياء وتربَّعتْ في انتظاري جئتُ أنا، لم يمكنني تغيير ما هو قائم. للحق، كانت هناك مساحة لا تتعدى واحدًا بالمئة، هي مساحة الحرية المتروكة لي، لم تكن مخصصة لاختيار مهنتي، ولكنها تتمثل في اختيار الموقد الذي أطهو فيه قِدرتي، أو الشوارع التي أطوف بها، أو اختيار وجبة الغداء، تماما كطفل يختار بين ثديي أمه، يمين أم شمال، فقط يمين وشمال، لكنه لا يستطيع تغيير الأم نفسها، هذه الاختيارات حُرية تحيط بها أسوار، محدودة جدًا وليس لها أبدا طعم الحُرية.

ما الجديد؟ حتى الآن وأنا أحدثك بما أقوله لك كل صباح تقريباً، ثم أعلق صفارتي في رقبتي، أنفخ فيها وأصيح:
«فووول»..

لكنني الآن يا حماري العزيز دبرتُ شيئًا، لا تقل لأحد، أعرف أنك مخلص لأنك لا تتكلم، أما لو تكلمت فسوف تساومني على سكوتك، أشكرُ الله العزيز القدير على أنك مخلوق أخرس حتى يوم الدين، وذلك لحسن حظي، لذلك سأكلمك وأنا مطمئن، اسمع، لقد نويتُ اليوم أن أضع سمًا في قِدرتي لزبائني، هؤلاء الحمقى الذين يصدقون أنهم بهوات وباشوات وهوانم، لقد سئمتُ منهم جميعًا، لم يعد لي صبر على تحمل نزقهم وجلافتهم وقذارة رائحتهم.

في جيوبهم رزقي؟ نعم، لكنني مللتُ من هذا الربح القليل، فهل يُعقل يا حماري أن أطوف الشوارع والأزقة كل يوم من الفجر وحتى أذان العصر ولا أستطيع شراء حذاء، منذ سنة وأنا

لا أستطيع شراءه، ودوائي أيضًا، لا أستطيع أن أشتريه كاملًا ولا مرة واحدة، وملابسي، ماذا أقول لك، أرى البهوات الحقيقيين وهم ينزلون من سياراتهم التي لا يجرُّها حمار، يتعطرون ويتبخترون وفي أيديهم هوانم حقيقيات، عندئذ يا حماري لا أشعر بالفقر، ولكن أشعر بأنني غير موجود على خريطة الدنيا، أو جئتُ في زمن غير مناسب لوجودي.

هذه الزجاجة، انتظر قليلا، سأخرجها لك من سيالتي، هه، هذه هي، سأدلقها كلها في القدرة الكبيرة، وعندئذ؛ سيأكلون الفول وينامون، ثم لا يستيقظون إلا على صوت الملكين، ثم أسرح بعربتي في مكان آخر أقل قذارة، ولكن يا حماري هناك شيء يجعلني لا أجرؤ على هذه الفعلة، أنني لا أضمن زبائن غير هؤلاء، وهذا هو مربط الفرس، سامحني على هذا التشبيه، فزبائني هُم الذين يملأون جيوبي بجنيهاتهم منذ الفجر وحتى أذان العصر، وهم أيضًا قد تعودوا على فولي الذي أبيعهم إياه، فأنا لا أضمن أن تعجب محتويات قِدرتي أناسًا آخرين في حي راقٍ جديد، وعندئذ، يوم لا ينفع ندم؛ من أين سآتي بزبائني مرة أخرى بعد أن يواريهم التراب؟

لذلك أنا آخذ رأيك، أنت الآن مستشاري يا حماري، أعلم أنك لا تهتم سوى بدس رأسك في كيس التبن أو مضغ حِزم البرسيم، لكنك يمكن أن تهز رأسك لو أعجبتك الفكرة، آه، أنت تهز رأسك باستمرار، وكأن كل الأفكار التي في الدنيا تعجبك، لو أنك تسمعني الآن فاحتمال أن تسخر من كلماتي، تقول في نفسك: «وهل يستشير الحمار إلا حمار؟» انتظر قليلا، سأقول لك، هؤلاء البشر الذين تراهم بعينيك الواسعتين وتسمعهم بأذنيك الفارعتين، كلهم تقريبا،

وكأنهم انتهزوا الفرصة لوجودهم معي في عالم واحد، انتهزوها لكي يكونوا بالوضاعة التي تراها، فلو رآني أحدهم جائعًا لن يقدم لي رغيفًا، وأنا أبيع الفول على عربتي التي تجرها وأمشي بجوارك حتى تتورم قدماي، فيظهرون أمامك طيبين لأنهم يشترون مني وينفعونني، لكن هؤلاء الناس أنفسهم لو رأوك وحدك فسوف يسرقوك ويبيعوك، وربما ذبحوك يا حماري وأكلوا من لحمك، وسيبيعوا عربتي الخشبية حاملة القدرة ويفككوها. لذلك، فأنا أكنّ كل الكره لهم جميعًا، أبيعهم فولي لكن لا طاقة لي برؤية ملامحهم ولا شم رائحتهم، أنا لا أريد التخلص منهم لشر في نفسي، فأنا أعرف ربنا حق المعرفة وأصلي الجمعة في المسجد، هم الذين لا يعرفون، هم الذين لا يعطون المحتاج، وبسبب غضبي من تفضلهم عليّ فكرتُ في أن أضع السُم في القدرة، ثم أمسك بصفارتي المعلقة في عنقي، أصفر بها وأنادي:

«فووول»..

ما رأيك فيما قلت؟ أنا لا أختبرك، السم وقد قمت بشرائه، الزبائن و سأختار منهم من لن يطلع عليه نهار الغد، لا أدري كيف نبتت بداخلي هذه الفكرة الجهنمية، من العادي ألا يعرف الإنسان كيف نبتت في رأسه فكرة، أضف إلى ذلك أنني رجل عجوز، فالأيام تطعن السن كل يوم، مع مرور الوقت يصبح لها مخالب وأنياب، وأنا، بعد أن تخطيت السبعين، اتسع حوضي وتفاقمت أمراضي، بعد أن تقوست قدماي بسبب اعوجاج عمودي الفقري، لم أعد أبقي على شيء، فأريد أن أسلّي نفسي بمناظر جديدة قبل أن أموت، لذلك، اخترت أن أسلي نفسي برؤية الناس وهي تموت، أتعرف يا حماري أنها متعة لا تضاهيها متعة، أن ترى شخصًا من نفس جنسك وهو

يودع الحياة، ليس هذا بالضبط، لكن المتعة القصوى أن تكون على عِلم بأنه سيموت الآن، آه، أفيون، والله أفيون يا حماري، الشخص من هؤلاء يتشنج، يترنح، ثم، خلاص نهائي لا رجعة فيه، متعة لا أعرف لها مصدرًا، لا أجد بديلًا عن السعي وراءها وتنفيذ ما يوصلني إليها في أسرع وقت. الأفكار تدور في رأسي، والصفارة الآن بين شفتي، أنفخ فيها:

«فووول»..

هه، أتعرف؟ وأنا أشتري هذه الزجاجة كذبت وقلت للبائع أنها للفئران، تخيل؟ فاصلتُ في الثمن، بالضبط كما أفاصل في شراء البرسيم لك أو في سعر طهو القدرة عند صاحب الموقد، أفاصل في الموت كأي شيء عادي من أمور الحياة.

لن يبقى إلا أن أضع في قِدرتي هذا السم وأدوّره بمغرفتي الطويلة، ثم أنتظر صاحب الحظ السيئ الذي سيفتتح الشراء من القِدرة. لقد أتعبني السير وتورمت قدماي. ثواني قليلة يا حماري، سأنتظر الزبون الأول، عيل كان أم باشا أم هانم، هو ونصيبه، من تدفع به قدماه إلى هُنا هو صاحب الافتتاح الكبير، أوكازيون، سأبيعه مجانًا دون مقابل، المقابل المعتبر أن أرى الزبون وهو يأكل الفول، يتلوّى ويصفر وجهه، ثم يقع على بوزه فتتحطم أسنانه. نصف المنطقة ستتغير منامتهم في الغد، أريد أن أعطيهم تذكرة تقيهم شرور الدنيا، فيتركونها سريعًا، وأتفرج عليهم وهم يغادرون، وهم يُحلّقون بأرواحهم ويتركون للأرض نفاياتهم.

لكن شيئًا ما لا أعرفه منعني من وضع السم في القدرة، لا أعرف لماذا تراجعتُ؟ لم أستطع التوصل لوصف ذلك الإحساس الذي سرى في عروقي كالبنج، قوة غامضة وإرادة مبهمة، يمتلكها كيان أكبر مني

ومـن زبائنـي وقـدرتي والكـرة الأرضيـة كلهـا، منعنـي، فألقيـتُ زجاجـة السـم الصغـيرة بطـول ذراعـي، اقـترب كلـب يشمشـم فيهـا، جريـتُ تجاهـه وضربتـه بطوبـة كي يبتعـد ولا يقرضهـا بأسـنانه، انحنيـتُ عليهـا والتقطتهـا، قذفـتُ بهـا فسـقطت في بالوعـة مفتوحـة وغاصـت، الميـاه الغامقـة لم تُبـيِّن الزجاجـة، وقفـتُ أمامهـا وأنـا لا أسـتطيع عمـل شيء للصراصير المسـكينة.

عُـدتُ إلى قـدرتي بعـد أن تخلصـتُ مـن الزجاجـة، لا أعـرف يـا حماري مـن أيـن أتتنـي تلـك الهمـة الكبـيرة لتدويـر المغرفـة في قـدرتي، دوَّرتهـا بـكل قـوتي، وأخـذت أهـز جيبـي بمـا فيـه مـن نقـود لأسـتفيق مـن ذلـك البنـج الغريـب الـذي اسـتحوذ عـلى عقـلي، لا أريـدك أن تتذكـر مـن كلـماتي حرفًـا يـا حـماري.

أمسـكتُ صفـارتي المعلقـة في رقبتـي، نفخـتُ فيهـا بنفـس طويـل ممطـوط ومتقطـع، كنـتُ مبسـوط الـروح، منتشـيًا، لا أعـرف لمـاذا. أنـادي الآن بصـوت أعـلى مـن المعتـاد...

«فووووول»

مريم ومي

البيت بيت مريم، مي طرقتْ الباب، وفتحت مريم، دخلت مي، ونظرت، تأملت وبحثت:

«أين الخروف؟».

قالت مي وعينها على الحمام:

«بالأمس ذبحناه».

مريم في «كي جي تو»، ومي داخلة «كي جي وان» بعد شهر.

قفزتا فوق الأنتريه، وتحت الكنبة، نطت مريم على فرو أبيض مفروش أمام المطبخ:

«هذا ما تبقى من خروف العيد».

سألت مي وعينها معلقة على الفرو وجزمة مريم أم كعب عريض:

«وسال الدم؟».

«كثيرًا جدًا».

تنظر مي لمريم نظرة توقير، فهي كبيرة وفي «كي جي تو»، وحافظة لغاية جدول ثلاثة، ومريم تعاملها بأنفة الكبار وعدم صبرهم. رفعت مي الفرو ووضعته على كتفيها الصغيرتين وصاحت:

«ماء.. ماء».

قفزت مريم إلى المطبخ وسحبت الحبل الذي كان يربط الخروف، دائرته لا تزال معقودة وتكفي رأسًا، وقطعة ممدودة بطول متر، مي تمشي على أربع، وتردد بصوت ضعيف مختنق:

«ماء.. ماء».

أطاحت مريم بالحبل في الهواء، فلفّ دائريًا وقبضت أصابعها عليه:

«تلعبي معي يا مي؟».

تظهر عينا مي من تحت الوبر الأبيض، تقول وفمها مدفون في الفرو الصوف:

«ألعب؟».

دون تفكير طويل قالت مريم:

«لعبة الخروف».

سقط الفرو عن كتفي مي ورفعته ثانية، بالكاد وصل صوتها الخافت لمريم:

«لا أعرفها. لكني أريد أن ألعبها معكِ».

تقترب مريم من مي، تقف مباشرة أمامها، رأس مي منكس، ويداها وقدماها تتحرك ببطء، تلف في محيط سجادة صغيرة حمراء، كان اقترابها من حافة السجادة كأنها هاوية بشكل ما، علقت مريم الحبل في عنق مي، وبقبضة عفيّة سحبته. مي تبتسم بعد كل مأمأة، وكأنها تستعطف جمهورها الوحيد لكي يُثني على تقليدها للخروف، ومريم معجبة بالابتسامة الصغيرة، فبعد أن كانت تمترس قدميها في الأرض وتجر الحبل الكتان المفتول الذي في يدها؛ أعطت ظهرها لمي ورفعت الحبل على كتفها، أسرعت في جرّ الخروف المفترض خلفها، تحولت ابتسامة مي بعد المأمأة لضحكة، مي تمأمئ ثم تضحك، وتقطع ضحكتها شرقة كالزغطة، ثم تُكمل الضحكة، وتُكمل اللعبة «ماء.. ماء».

في البداية، كانت شراشيب الفرو تحمي عنق مي، لكن بعد أن

تزحزح الفرو ثم انزلق على ظهرها بسبب الحركة المستمرة تمكّن الحبل من عنقها الصغير. استطاعت مي أن تحافظ على إيقاع المأمأة، بعد بضع خطوات يخرج صوت منغم، بسبب الحركة تَقِلّ قوته، وحدته، تضطرب ضربات قلبها، ويزداد الشهيق سُرعة «ماء.. ماء».

بدأت مي تضيق باللعبة، في البداية، تخيلت هيئتها في الخروف، صوته وبراءته، لكن الحبل يحزّ الآن في رقبتها الضعيفة، ويحك حسنة طالعة في ذقنها الناعم، حاولتْ رفع الحبل، ضغط العُقدة كان أقوى، عزم الجر يغالبها، تحاول مرة أخرى، فلا تستطيع الارتكاز على ثلاث. في التوقيت نفسه الذي بدأت فيه مي تشعر بالملل من اللعبة؛ كانت الهمّة قد تملكت من مريم، دب فيها نشاط أقرب لحُمى خفيفة، أسرعت في جر الحبل ولم تلتزم بمحيط السجادة الحمراء، تحشرجت المأمأة، ثم انقطعت، ومريم تشب بالحبل، تركض، تريد أن تضع حدا عنيفا للعبة، لا تريدها نهاية تقليدية، تثب، تركض «ماء.. ما.. مـ» ومي تريد أن تنادي مريم، إحساسها بالخطر توقف عندما اهتزت الأشياء من حولها وتحول كل ما يحيط بها لشكل أقرب لحلم يبدأ، أو يضع أوزاره، أو ينحرف عن الخط المرسوم ويندمج مع أحلام أخرى.

لما فشلت محاولات مي في مواكبة السرعة وَثَبَتْ خلف صديقتها، هذه الآلة التي فسدت فجأة، أو اشتد عليها التيار بلا مقدمات، كانت تشبّ على قدميها وتقفز، هذه الحركة بالذات أثارت في مريم شيئًا مبهمًا، أغرتها، ربما ظنّت أن مي متجاوبة مع اللعبة بشكل ما، فعبّرت عن الإعجاب بهذه القفزات. وقع الفرو نهائيا عن ظهر مي وداست عليه مرتين أثناء انشدادها خلف الحبل.

أخـذت الحُمـى إيقاعًـا أعـلى، جـرّت مريـم الحبـل بسرعـة دون استراحة، مـي تشـد الحبل وفور أن يرتخي تجذبـه مريـم مـرة أخرى بقسـوة. انبطحـت مـي عـلى الأرض، تمـددت وارتعشـت قدماهـا، نـام شـعرها الأصفـر فـوق الفـرو الأبيـض الواقـع بجوارهـا. لم تنتبـه مريـم لنوم مـي إلا عندمـا أصبـح الحِمـل ثقيـلا، وبعـد أن كانـت تجـر الحبـل أصبحـتْ تجـرّ مـي. رمـت الحبـل واقتربـت منهـا، ملّسـت عـلى شـعرها، أبعـدت الحبـل عـن أذنهـا والحسـنة، دنـت منهـا وقالـت:

«لم تنتـهِ اللعبـة يـا مـي. سـيأتي أخـي مـن المدرسـة ويعمـل دور الجـزار».

عمي وأبي

وقف عمي يحدِّث أبي:

«عاوز الحبل».

كانت هناك جاموسة قريبة منًا، تقف حرُة بلا قيد، بحث أبي عن طلب أخيه الكبير، في البداية؛ كان يبحث بلا مبالاة، كأي إنسان يبحث عن شيء عادي، وعندما وجد عمي مصممًا على إحضار الحبل حالا، في هذا التوقيت بالذات، بحث مرة أخرى بشكل أكثر اهتماما، لكنه أيضا لم يجده، يصرخ عمي الذي أصبح كأنه يفقد بعض شعيرات مخه مع صوته:

«قلت عاوز الحبل».

ويقول أبي الذي بدت ملامحه تأخذ طريقها التدريجي للتوتر:

«حاضر. اهدأ. سأحضره حالا».

ويهيم أبي، يصول ويذرع الدار كلها باحثًا عن طلب عمي الذي لم يعد يرى في الدنيا كلها غيره، الحبل، يبحث فوق تلال الذرة الناشفة وتحت الكنب وفوق السطح، وعندما يفشل للمرَّة الثالثة يسأل أمي، ولا تجيبه، تفضِّل أن تساعده بشكل عملي وتبحث معه عن طلب أخيه، لكنها أيضا لا تجده، فيخرجان لعمي الجالس على المصطبة، وعندما يلمح أيديهما خاوية بلا حبل يقوم من مكانه ويضع يديه حول خصره:

«أنا قلت عاوز الحبل حالًا. يعني عاوز الحبل حالًا. تصرفوا».

وتصبح الدار خلية نحل نشط في أقل من دقيقة، أمي وأبي وأخي الأكبر، سحب أبي في يده أحد الجيران ليبحث معه، وبعد أكثر من ساعتين من البحث المُرهق خشي أبي أن يواجه عمي بالحقيقة، أن

الحبل فص ملح وذاب، اقترب منه وحده أولًا ليمتص غضبه:

«هل يمكن أن تعطيني الفرصة حتى الغد. الغد فقط على أقصى تقدير؟».

ويرفض عمي المهلة، يكظم غيظه ويصر أسنانه، كان كأنه سيأكلنا مقابل هذا الحبل المختبئ في مكان مجهول، ابتعد أبي عن عمي، ثم دخل لأمي واقترح عليها بديلًا ممتازًا لحل هذه المشكلة، اقتنعتْ أمي بالفكرة ولم تتردد في البدء بتنفيذها، جاءت ببعض الملابس القديمة ومزّقتها إلى شرائط رفيعة في عرض إصبع، ثم فتلتْ الشرائط كل ثلاث مع بعضها، أخذ أبي منها الضفائر وصنع منها ضفيرة واحدة كبيرة ومتينة، ثم خرج بها ملفوفة على ذراعه، وقال لعمي في أبهة:

«خذ. هذا حبل أحسن من حبلك».

ثار عمي ثورة عارمة، أمسك بحبل الضفائر وألقى به على الأرض، سبَّ البشر والطير والحجر، أخذ يجوب المسافة الصغيرة بين المصطبة وباب الدار ذهابًا وإيابًا مرات عدة، عينه تُخرج شررًا يتطاير، وذراعاه خلف ظهره، كفاه تفركان، ورأسه منحنٍ للأمام كجمل ركبه الحَرَنْ، خُلِعَتْ فردة مداسه فأطاح بالأخرى بعيدًا في حركة غضب عارمة، اختفى أبي من أمامه ودخل لأمي مرة أخرى:

«لا يعجبه شيء، ولا يريد إلا الحبل الذي في رأسه».

تجلس أمي وتسند رأسها على كفها، يهمد بدن أخي الأكبر فيجلس بجوارها، ويقف أبي عند فتحة الباب يدبر أمره.

اقتربتُ من أبي، خرج صوتي هادئًا، كأنه أتى من مكان آخر غير متوتر:

«لماذا لا تقولوا له إن الحبل ضاع؟».

تتبه أمي، ويحملق أخي، وينظر أبي في عيني مباشرة، يقترب من مجلس أمي وأخي، لكنه لا يوجه كلماته إلى أحد بعينه:

«فعلًا. لماذا نحاول إرضاءه على حساب الحقيقة، لماذا لا نقول له إن الحبل قد ضاع؟».

تقف أمي:

«فعلا الحبل ضاع».

ويتبعهما أبي إلى الخارج، أسمع صوته مُحدثًا نفسه وهو في طريقه إلى المصطبة التي يجلس عليها عمي:

«صحيح. لقد ضاع الحبل».

و

انتهزتْ جميع الشخصيات غياب المؤلف وخرجت من أوراقها، أخذتْ معها الأفعال وهي خارجة، والأسماء أيضا، تركتْ الكتاب يعج بحروف العطف وحروف الجر، انتشر حرف الواو بطول الصفحات، وقف بين شيئين واطمأن لمكانه، ثم نُثِرتْ علامات الترقيم حول الحروف، جلست الشخصيات جميعها بالخارج يتفرجون على هذا الشكل المتقطع غير المفهوم « و، على، من، و، ثم، إلى، في، إن، و... و...».

أصبحتْ الصفحات كلها على هذا الشكل العجيب، ولمَّا فرغتْ من مضمونها بذلك الهروب الكبير؛ وجدت بعض المتعاطفين ممن خرجوا عليها، فحاولت بعض الشخصيات الارتداد والعودة للأوراق مرة أخرى، لكن شخصية البطل كانت أقوى منهم جميعا، فأقنعَ معه الشخصيات المساعدة، ولكن بقيتْ الشخصيات الثانوية والهامشية تصنع بعض الضجيج والاعتراض.

انتصب عود البطل ولفَّ حول الكتاب مرتين، نظر إلى الأوراق الخالية من المضمون بازدراء وتعالٍ، أخذ يُدوِّر المسألة في رأسه، وقفت الشخصيات الورقية بجوار البطل، لحظة الخروج كانوا كلهم في حجم واحد تقريبا، يتحركون ببطء وبلا أبعاد، لكن البطل وحده صنع لنفسه بُعدا جديدا بالحيلة، وقف عكس ضوء الأباجورة الثابتة على مكتب المؤلف، فانتفخ جسده وأصبح مثل كرة كبيرة من الظل، كان شكله مهيبا وحجمه أكبر منه في الحقيقة، ظل يكلم الشخصيات صاحبة الأدوار الصغيرة عن بطولاته عندما كان راقدا في الكتاب، وأنه اعترض على تواجده فوق هذه الأوراق بسبب مهاراته وفنونه غير المحدودة.

صدَّقته بعض الشخصيات المساعدة، ولكن الثانويين والهامشيين اعترضوا، لم يجد البطل بديلا يقنعهم به إلا الرهبة، فاستقطب الشخصيات التي اقتنعت ببطولته وأعطاها أدوارًا مساعدة، لم يعطِ للشخصيات الهامشية مثلهم أدوارًا واضحة، فظل الهامشيون على الضآلة نفسها، لكنهم اعترضوا وعملوا جلبة وغاغة، وكان لابد من تهدئتهم. فقفزت الفكرة إلى ذهن البطل ونفَّذها دون تردد.

قال لهم إنه سيبلغ المؤلف عن تمردهم وعدم دعمهم لبطولته الأسطورية، في البداية، لم يكونوا متأكدين من وجود هذا المؤلف في الحقيقة، إذ إنهم قضوا الشطر الأكبر من حياتهم بين الأوراق يؤدون أدوارًا هامشية لا يراها أحد، فانتهز البطل هذه الفرصة وأخذ يبالغ لهم في وصف المؤلف، ويتلو على مسامعهم أغنية من نغمة واحدة، مفادها أنه يمتلك مصيرهم في يده، فيمكن أن يعيدهم صاغرين إلى الكتاب الضيق لو أراد ذلك، ولن يتمكّنوا من الخروج مرة أخرى، سيُدفنون بين حروف الجر وعلامات الترقيم كما كانوا منذ أن خُلِقوا، ليس هذا فحسب، بل سيحاسبهم بأثر رجعي على كل ما فعلوه.

يقنعهم البطل بأن المؤلف خلق لهم أبطالًا يجب أن يسمعوا كلامهم وينصاعوا دون تردد في تنفيذ ما يطلبون.

انقسمت الشخصيات الثانوية على نفسها، وكذلك الشخصيات الهامشية التي لم تكد تظهر في الكتاب إلا مرة واحدة أو مرتين على الأكثر، ولم يعطها المؤلف اسمًا إمعانًا في تهميش مُتعمَّد، فمنهم من آثر السلامة وقرر إرضاء المؤلف في صورة إرضاء البطل، ومنهم من اعترض على هذا الكلام وقرر عدم إرضاء المؤلف أو إرضاء البطل، وبدأت الخيوط تتعقد ككرة الصوف أمام البطل، لكنه لم يغلب في

اختراع حيلة جديدة.

جمع أولًا شخصياته المساعدة، منحهم مناصب كبيرة لكسر شوكتهم وضمان ولائهم، ثم أصبحوا هم وكلاء لما يريده البطل، هو يقول لهم وهم يقولون للمهمشين، تفتت اعتراضات الشخصيات التي لم تكن تحلم حتى وقت قريب بأن يصبح لها رأي، ونسوا المؤلف والبطل ولم يعد يشغلهم إلا الشخصيات المساعدة.

لكن الشخصيات المساعدة ملّت من ترديد كلمات البطل على مسامع المهمشين، فاختاروا بعض الشخصيات الثانوية واجتمعوا بهم في سرية بعيدًا عن عيون البطل، قالوا لهم ما يريده تمامًا، لكن أفهموهم أن هذا هو رأيهم هم، وأن البطل لا علاقة له بهذا الرأي، واقتنع الثانويون بالكلام لأن الشخصيات المساعدة وعدتهم ببعض الامتيازات، وأصبحتْ العقبة متمثلة في المهمشين فقط، ولكنهم كُثر، أكثر من البطل والشخصيات المساعدة والشخصيات الثانوية بأعداد مضاعفة، فجاءت الحيلة للثانويين ولم يترددوا في تنفيذها.

اجتمعوا سرًا ببعض الشخصيات المهمشة المختارة بعناية، ووعدوهم بخلع ألقاب عليهم وخصّهم بامتيازات محدودة، وذلك نظير بعض الخدمات البسيطة التي سيقدمونها للبطل مثل:

أولًا: إقناع باقي المهمشين بوجود مؤلف هم لم يروه ولا مرة واحدة، ثانيًا: يقرون بأسطورية البطل الأوحد الذي لا يأتيه الباطل أبدًا، ثالثًا: وهذا هو الأهم، أن يقنعوا أهلهم من الشخصيات الهامشية بضرورة الصبر على كل المآسي كي تستمر الحياة، فدائمًا القيامة قريبة، والخراب على الأبواب، سينضب الزرع وتتوقَّف السماء عن إرسال جندها، والبطل يقيهم وأهليهم دائمًا شر الحرب والدمار.

ظلت الحال على هذه الوتيرة لمدة طويلة، جيلين على الأقل، المهمشون المختارون يُهدِّئون أحوال المهمشين من أهلهم دون أن يقدموا لهم حلولًا حقيقية، والمؤلف غائب عن كتابه الذي ألَّفه منذ مدة لا يعلمها أحد، والبطل يجلس على عرشه مزهوًا، تبعده مسافة ملحوظة عن الطبقات الأدنى، يعيش في عالم مصطنع وخيالي.

لكن جيل المهمشين الذي ترك الكتاب في أول الزمان ضربه العجز، وأصبح الكبار منهم لا يقدمون أي حكمة، بل إن رؤوسهم كانت خاوية وعقولهم الواهنة تدق الطبل لصاحب المقام الجديد الذي سيجلس على كرسي البطل، وورث بؤسهم ذرية لا يعرفون شيئًا عن الهروب الكبير من صفحات الكتاب، فظلوا يحاربون البطل ولا يعترفون ببطولته رغم الضغوط الشديدة عليهم كي ينصاعوا، ثم توجهوا باللوم إلى المؤلف ذاته، وشكّوا في وجوده من الأساس، فامتنعوا عن نسب الكتاب إليه، وازدروا كل من كان يخاطبه، وانقلبوا على ميراث آبائهم وأجدادهم، ظلوا على هذه الوتيرة من تقلبات الأنفس والشك حتى وصل أمر تمردهم للبطل الجديد، وكان عليه أن يتصرف معهم بشكل مختلف، وتَصرَّف.

في البداية، بحث عن الكتاب الذي هرب منه جدُّه في قديم الزمان، وفتحه أمامهم وأقسم عليه أنه يعمل من أجل مصلحتهم، ولما رأت الذرية الجديدة هذا الكتاب العجيب قالوا إن هناك بعض أشياء مهمة تنقصه، فما معنى مثل هذه الرموز، من ذا الذي يفهم حروفًا مبهمة دون أسماء أو أفعال؟

«و، على، من، و، ثم، إلى، في، إن، و... و...».

كانوا ينظرون إلى الحروف ولا يفهمون شيئًا، ينتهز البطل هذه الحالة من عدم الفهم، ويقوم بتفسيراته الخاصة للكتاب، منهم مَنْ

يُصدِّق ما فسَّره ومنهم مَن يعترض، منهم من كان يشك في رجاحة عقله ومنهم من ينتظر معجزة مبهمة، عندما بدأت بوادر انقسام انتظم تنفس البطل وعاد يدق بقبضتيه على صدره في زهو، كان قليلًا ما يصل إلى مثل هذه الحالة من ثقته بنفسه، يلقي بعض الأوامر السريعة للشخصيات الثانوية ثم ينصرف.

لكن هناك بعض الشخصيات المهمشة اكتشفتْ اللعبة، فحاولوا إيصال رأيهم فيما حدث لأكبر عدد ممكن من الناس، قالوا خلال هذه الاجتماعات السريَّة إن البطل ليس ببطل، وأنبأوهم بأنه مجرد شخصية عادية جدًا، مساعدة أو ثانوية، وربما هامشية مثلهم، وأن المؤلف رَسَمَهُ على الورق في دور صغير جدًا، وكان يمكن أن يقول جملة واحدة أو يلوح بإشارة عابرة، لكنه هو مَنْ نصَّب نفسه بطلًا عليهم، وأنه ليس خارقًا ولا أسطوريًا ولا أي شيء آخر من هذا القبيل.

اندس بينهم بعض أشخاص منهم، من المهمشين أنفسهم، يتنصتون على ما يُقال من نقد للبطل، يستمعون للكلمات جيدًا ويزيدون عليها من خيالهم، يحفظون ملامح مَنْ قال ويُبلغون الشخصيات المساعدة؛ والتي تقوم بتوصيل ما يسمعونه إلى البطل ليفوزوا بمغنم ما، ويسعد البطل لهذه الخليَّة المخلصة التي تعمل من أجل راحته، فيُعيّن أقدرهم على توصيل الكلام رئيسًا لباقي فريقه، ويأمر شخصًا آخر بأن يبني حوشًا كبيرًا له أسوار عالية، فوقها لفائف سلك وأسنَّة حِراب، وفي بطن الحوش يُلقون بكل من سُمِعوا وهُم يعترضون على تسيير البطل لأمور باقي الشخصيات في الكتاب.

لم تمل الشخصيات المهمشة من المحاولات، أنشأوا أماكن يلتقون

فيها ويناقشون إمكانية عودتهم للكتاب مرة أخرى كما كان أجدادهم، وأقنعوهم بأنه إذا عادت جميع الشخصيات إلى الكتاب فستعود بعدها الأفعال، ولو عادت الأفعال سيكون ذلك إيذانًا بهدم السور العالي الذي صنعه البطل، ولو نجحوا في هدم السور ستصبح لديهم الإمكانية لرؤية المؤلف نفسه، وعندما يرونه يمكنهم أن يسألوه عن البطل، وهل هو خلقه في كتابه شخصية عادية مثلهم؛ أم أن له خواص لا تتوفر للناس العاديين؟

لم يجد البطل أمامه حلًا إلا المواجهات الصريحة، فقد فشل السور العالي مع الشخصيات المهمشة، وفشلت مهمة المتنصتين الذين ينقلون للبطل التمرد والاحتجاجات، لم يعد أمامه إلا القتل المباشر ليحتفظ بصورته كبطل.

وبالفعل، بدأت آلة القتل تعمل بأقصى طاقتها، في الوقت الذي كان هناك قلة من المهمشين ينخرون جدران السور العالي، يخرج بعض المحبوسين وهم لا يستوعبون حريتهم، تنزعج أعينهم من رؤية الشمس، وتضطرب عقولهم عندما يرون أشخاصًا جددًا بالخارج، يهرب البطل منهم ليعود إلى الكتاب مرة أخرى، لكنه لا يستطيع، تحاول الشخصيات المساعدة والثانوية والهامشية أن تختار منهم بطلًا جديدًا، وهُنا يقعون في مأزق، لأنهم لابد أن يعودوا إلى الكتاب مرة أخرى، فتعود الأسماء والأفعال إلى جوار حروف العطف وحروف الجر وعلامات الترقيم.

لكنهم عندما بحثوا عن الكتاب لم يجدوه، فقد اختفى في اللحظة نفسها التي اختفى فيها البطل.

جزيل الشكر لـ

عماد العادلي

أشرف العشماوي

إبراهيم عبد الرحمن

هدى أبوزيد

إبراهيم الجمال

أحمد سعيد

الفهرس

العنكبوت وأحلام جدي 9

الحافة والمسدس 15

عمتي والحمار 21

هي وهو 29

الحجر والقتل 35

أثيرة وروحية 41

البديل والمحتمل 53

رضا وصباح 59

الرجل وطريقة موته العجيبة 67

جدي والدراجة 81

المغفلون والحلاق العجوز 87

الشجرة وما تحتها 93

النطفة وروحها 99

الموت وسباطة الموز 105

الخبيئة والليل 111

الولد والبهلوان 117

البائع وخياله 123

مريم ومي 131

عمي وأبي 137

و 143

و

"هـذا الرجـل يضحـك عليـك يـا جـدي، لا تُعطه عمـتي. ألـم تقـل بنفسـها أنهـا لا يمكنها العيش معه أبدا؟".

ويقـول جـدي جملـة تجمـع بـين قـوة عظيمـة وضعـف شـديد: "انظر إلى عمتك بالداخل يا مُغفَّل".

وأتسلل إلى الداخـل، فأراهـا واقفـة أمـام مـرآة مكسـورة، تُخـرج مـن تحـت الإيشـارب خُصلـة شَـعر، تُمَوِّجهـا بثـلاث بِنَـس طويلـة سـوداء، وتحـك خدَّهـا بورقـة دخـان حمـراء، تـرج المكحلـة وتُغمِـض عليهـا عينهـا ثـم تسـحبها بعنـف مـن بـين جفنيهـا. وأعـود إلى جـدي، وجهـي يُخـرِج صهـدا، ويعـود رأسي يشـبه فخـارة تتفحـم في فـرن، ويسألني:

"ها. ماذا رأيت؟".

وأقول:

"عمتي قليلة الأدب".

عمـرو العـادلي، روائي وقـاص مـصري، تخـرج مـن قسـم الاجتمـاع بجامعـة عـين شـمس وباحـث في علـم اجتمـاع الأدب، صـدر لـه العديـد مـن الأعمـال، منهـا المجموعـة القصصيـة "حكايـة يوسـف إدريـس" سـنة 2012 والـتي حصـدت جائزة ساويرس في القصة القصيرة فرع كبار الأدباء 2016، ورواية "الزيارة" سنة 2014 والتي حصل من خلالها على جائزة الدولة التشجيعية 2016، ومن أعماله أيضا رواية "إغواء يوسف" سنة 2011 ورواية "كتالوج شندلر" سنة 2013 ورواية "رحلة العائلة غير المقدسة" سنة 2015 والمجموعة القصصية "عالم فرانشي" سنة 2016

